مختارات من كُتـَّاب نوبل

(همنجواى، ليسنج، مولر)

ترجمة:
حسين عيد

لوجو
الهيئة المربع

سلسلة
آفاق عالمية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
جمال العسكرى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• مختارات من كتّاب نوبل
• ترجمة : حسين عيد
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2010م
152ص ـ 5ر13 × 5ر19 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية: سوزان عبدالعال
• رقم الإيداع: ١١١٨٠/ ٢٠١٠
• المراسلات :
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى : 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت : 27947891 (داخلى : 180)

• الطباعة والتنفيذ :
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : 23904096

90

سلسلة شهرية تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية فى الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
طلعت الشايب
مدير التحرير
تغريد كامل إمام
سكرتير التحرير
وليد محمد عبد العزيز

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

مختارات من كُتّاب نوبل

مقدمة

يجتهد هذا الكتاب فى تقديم بعض ملامح إبداعية لثلاثة كتاب حصلوا على جائزة نوبل فى الأدب، هم الأمريكى آرنست همنجواى (نوبل ١٩٥٤)، الإنجليزية دوريس ليسنج (نوبل ٢٠٠٧)، والألمانية هيرتا مولر (نوبل ٢٠٠٩). لكنه لم يجنح من أجل تحقيق هذا الغرض إلى التنظير، بل فضّل تقديم (تعريف) موجز لكل كاتب يتبعه (ترجمة) نصوص خمس قصص قصيرة حتى يتعرّف القارئ بنفسه وبشكل مباشر على بعض من جوانب العالم الفنى الخاص بكل كاتب من أولئك الكتاب.

وكلى أمل أن يجد القارئ فى هذا الكتاب بعض المتعة والفائدة. والله ولى التوفيق.

حسين عيد

(فبراير ٢٠١٠)

الفصل الأول:

قصص الأمريكى إرنست همنجواى
(نوبل١٩٥٤)

الكاتب إرنست همنجواى
(نوبل١٩٥٤)

ولد إرنست همنجواى (١٨٩٩-١٩٦١) فى أوك بارك بولاية الينوى، وبدأ مستقبله ككاتب بالعمل فى مكتب صحفى فى كانساس سيتى، وهو فى السابعة عشر من عمره. التحق كمتطوع فى وحدة طوارئ فى الجيش الإيطالى، بعد أن دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى. وقد جرح بعد أن خدم فى الجبهة، ومنحته الحكومة الإيطالية وساما، وقضى زمنا معتبرا فى المستشفيات. وبعد عودته إلى الولايات المتحدة، أصبح مخبرا صحفيا لصحف أمريكية وكندية، وسرعان ما أرسل ثانية إلى أوروبا لتغطية أحداث ثورة اليونان.

أصبح همنجواى، خلال حقبة العشرينات، عضوا فى مجموعة الأمريكيين الساخطين فى باريس، التى وصفها فى أول أعماله الهامة، رواية "الشمس تشرق أيضا" (١٩٢٦)، التى نالت نجاحا

معادلا لرواية "وداعا للسلاح" (١٩٣٩)، التى عرضت لأوهام ضابط طوارئ أمريكى فى الحرب ودوره كهارب من الجندية. وقد استخدم همنجواى خبراته كمراسل خلال الحرب الأهلية فى أسبانيا كخلفية لأكثر رواياته طموحا "لمن تدق الأجراس" (١٩٤٠). يلفت النظر من بين أعماله المتأخرة روايته القصيرة "العجوز والبحر" (١٩٥٢)، التى تناولت رحلة صياد سمك عجوز وصراعه الطويل المتوحّد مع سمكة والبحر، وانتصاره الشخصى فى النهاية وإن هُزم.

كان همنجواى نفسه رياضيا عظيما، أحبّ أن يصوّر الجنود، الصيادين، مصارعى الثيران، حيث تبدت شجاعة وأمانة البشر ضد وحشية المجتمع الحديث، وفقدانهم خلال تلك المواجهات الأمل والإيمان. كان نثره القوى الصريح، وحواره المكثف هما الأكثر تأثيرا بشكل خاص فى قصصه القصيرة، التى صدر بعضا منها فى مجموعات، مثل: "رجال بلا نساء" (١٩٢٧)، و"العمود الخامس وأول تسع وأربعين قصة" (١٩٣٨). مات همنجواى منتحرا فى ايداهو عام ١٩٦١.

قطة فى المطر

كان هناك أمريكيان فقط قد استقرا فى الفندق. لم يكونا يعرفان أىّ من أولئك الذين يعبرون السلالم منصرفين من غرفهم أو قادمين إليها. كانت غرفتهما فى الطابق الثانى، مواجهة للبحر. كما واجهت الحديقة العامة أيضا ونُصب الحرب التذكارى. كانت هناك أيضا أشجار نخيل ضخمة ومقاعد خضراء فى الحديقة العامة. وكان يوجد هناك دائما فى الطقس الجيد فنان مع حامله. يحبّ الفنانون أسلوب نمو أشجار النخيل والألوان اللامعة للفنادق المواجهة للبحر. كما وفد إيطاليون من بعيد عبر طريق طويل كى يقوموا بزيارة النصب التذكارى، الذى كان مصنوعا من برونز يتلألأ تحت المطر. كانت السماء تمطر. يتقاطر المطر من أشجار النخيل. تجمعت المياه فى مستنقعات على الممرات المفروشة بالحصاة. اقتحم المطر البحر على

امتداد خط طويل. كانت السيارات تمضى من الميدان المجاور للنصب التذكارى. وقف نادل فى مدخل مقهى عبر الميدان يطلّ على الميدان الخالى.

وقفت الزوجة الأمريكية تطلّ من النافذة. كانت هناك فى الخارج إلى أسفل نافذتيهما تماما قطة رابضة تحت واحدة من الموائد الخضراء التى يتقاطر عليها المطر. كانت القطة تحاول أن تكتنز نفسها حتى لا يتقاطر عليها المطر.

قالت الزوجة الأمريكية:

"سأهبط وأحضر تلك القطيطة

عرض زوجها من الفراش:

"سأقوم أنا بذلك"

"لا، سأحضرها أنا. تحاول القطيطة المسكينة هناك أن تحافظ على نفسها جافة تحت المائدة"

استمر الزوج فى القراءة، وهو يرقد مستندا إلى وسادتين عند أسفل الفراش. قال:

"حاولى ألاّ تبتلى"

هبطت الزوجة درجات السلم، نهض مالك الفندق وأنحنى لها عندما كانت تعبر أمام المكتب. كانت منضدته تقع عند النهاية البعيدة من المكتب. كان رجلا عجوزا، بالغ الطول.

قالت الزوجة بالإيطالية، معجبة بمدير الفندق:

"المطر"

"نعم، نعم، سنيورا، يا له من وقت عصيب. إنه طقس شديد الرداءة"

وقف وراء منضدته فى الطرف البعيد من الغرفة المعتمة. كم أعجبت به الزوجة. كم أحبّت الأسلوب الذى أراد أن يخدمها به. كم أحبّت إحساسه بكينونته كمدير للفندق. أحبّت كبر عمره، وجهه العجوز، ويديه الكبيرتين.

فتحت الباب، وهى معجبة به، وأطلت إلى الخارج. كانت تمطر بشدة. كان هناك رجل برداء مطاطى على الكتفين يعبر الميدان الخالى إلى المقهى. ستكون القطة فى مكان قريب إلى اليمين. ومن المحتمل أن تمضى على امتداد الإفريز. وبينما كانت واقفة عند المدخل، إذا بمظلة تفتح وراءها. كانت هى الخادمة التى تدير شئون غرفتهما.

قالت مبتسمة، وهى تتحدث بالإيطالية:

"يجب ألاّ يصيبك البلل"

أرسلها مدير الفندق بطبيعة الحال.

مشت على امتداد الممر الحصوى، مع الخادمة وهى فاردة المظلة فوقها، حتى أصبحت تحت نافذتهما. كانت المائدة هناك، مغسولة يلمع لونها الأخضر فى المطر، لكن القطة اختفت. فجأة أصبحت مستاءة. رفعت الخادمة بصرها إليها، متسائلة بالإيطالية:

"هل هناك أىّ شىء مفقود، يا سنيورا؟"

قالت الأمريكية:

"كانت هناك قطة"

"قطة؟"

"نعم، قطة"

"قطة؟"

ضحكت الخادمة:

"قطة فى المطر؟"

قالت المرأة:

"نعم، تحت المائدة"

ثم استطردت:

"أوه، كم رغبت فيها بشدة. لقد أردت قطيطة"

توتر وجه الخادمة، حين تحدثت بالإنجليزية. قالت:

"هيّا، يا سنيورا، ينبغى أن نعود إلى الداخل، وإلاّ ستبتلين"

قالت الفتاة الأمريكية:

"إننى أوافقك الرأى"

تراجعا ثانية على امتداد الممر الحصوى، واجتازا الباب. مكثت الخادمة بالخارج قليلا حتى تغلق المظلة. وبينما كانت الفتاة الأمريكية تعبر المكتب، انحنى صاحب الفندق الإيطالى، من وراء منضدته. شعرت الفتاة بشىء صغير يتوتر بداخلها. لقد جعلها صاحب الفندق الإيطالى تشعر بشىء صغير جدا وبأهمية حقيقية فى نفس الوقت. كان لديها شعور خاطف بكينونة فائقة الأهمية. راحت تصعد

السلالم. فتحت باب الغرفة. كان جورج مازال يقرأ فى الغرفة. سألها، وهو ينحى الكتاب جانبا:

"هل حصلت على القطة؟"

"لقد رحلت"

قال، وهو يريح عينيه من القراءة:

"أتعجب أين تكون قد ذهبت"

جلست على الفراش، وهى تقول:

"كم أردتها بشدة، لا أعرف لماذا أردتها بهذا القدر. كم أردت تلك القطيطة المسكينة. لم يكن ممتعا أن تكون قطيطة مسكينة بالخارج فى المطر"

كان جورج قد رجع إلى القراءة ثانية.

تحركت، جلست إلى مائدة الزينة أمام المرآة، ناظرة إلى نفسها فى مرآة يدوية. تفحصّت صورة وجهها، من أحد الجانبين أولا، ثم من الجانب الآخر. تفحّصت ظهر رأسها وعنقها. ثم تساءلت ناظرة إلى صورة وجهها مرة أخرى:

"ألا تعتقد أنها ستكون فكرة جيدة، إذا تركت شعرى بارزا إلى الوراء؟"

رفع جورج بصره، ورأى ظهر عنقها، مطوّقا على نحو محكم مثل الأولاد:

"إنى أحبه كما هو"

قالت:

"لقد تعبت منه كثيرا. كم تعبت من أن أبدو مثل ولد"

غيّر جورج مكانه على السرير. لم يبعد بصره عنها منذ أن بدأت الحديث. قال:

"أنت تبدين جميلة مرفوّة برقة"

وضعت المرآة على مائدة الزينة، وتوجهت إلى النافذة، وأطلت منها. كان الظلام قد حلّ. قالت:

"أريد أن أسحب شعرى للوراء بإحكام ونعومة، صانعة منه عقدة كبيرة إلى الخلف، يمكننى أن أشعر بها. أريد قطيطة كى تجلس فى حضنى وتغرغر حين أداعبها"

قال جورج من السرير:

"نعم؟"

"وأريد أن أتناول طعامى على مائدة بواسطة أدواتى الفضية وأريد شموعا. وأريد أن يكون هو الربيع، وأريد أن أمشط شعرى أمام مرآة وأريد قطيطة وأريد بعض الملابس الجديدة"

قال جورج:

"آهـ، صمتا، ولتحضرى شيئا للقراءة"

كان قد عاد ثانية إلى القراءة.

كانت زوجته تطلّ من النافذة. كان الظلام قد حل الآن، وما زال المطر مستمرا على أشجار النخيل.

قالت:

"إننى أريد قطة، على أية حال. أريد قطة الآن. إذا لم يمكننى أن

أجعل شعرى طويلا أو أحصل على أيّة متعة، فيمكننى أن أحصل على قطة"

لم يكن جورج منصتا. كان يقرأ كتابه. أطلت زوجته من النافذة، حيث حلّ ضوء بالميدان.

طرق شخص الباب. قال جورج بالاسبانية، رافعا بصره عن كتابه:

"أدخل"

وقفت الخادمة عند المدخل، ممسكة صدفة سلحفاة ضخمة مضغوطة بداخلها قطة بإحكام، ومدلاة إلى أسفل أمام جسمها. قالت:

"أستميحك عذرا، فقد طلب منى مدير الفندق أن أحضرها للسنيورا"

عجوز على الجسر

جلس عجوز، بنظارة ذات إطار معدنى، وملابس ملوّثة بالغبار، على جانب الطريق. كان هناك جسر عائم عبر النهر، تعبره عربات، وشاحنات، ورجال، ونساء، وأطفال. تتهادى البغال، التى تسحب العربات على الضفة المنحدرة من الجسر مع جنود يساعدون بدفع العجلات. تعلو الجسر شاحنات تتجه بعيدا كلية عنه، ويمشى الفلاحون ببطء على امتداد غبار عميق يرتفع حتى كواحلهم. لكن العجوز جلس هناك دون حراك. كان متعبا للغاية من التقدّم أبعد من ذلك.

كان علىّ أن أعبر، وأستطلع ما وراء رأس الجسر، والتعرّف على مدى ما أحرزه العدوّ من تقدّم. قمت بذلك، وقفلت عائدا فوق الجسر. لم تعد هناك الآن عربات كثيرة، مع قلة قليلة من البشر تمشى على

أقدامها، لكنّ العجوز كان مازال هناك.

"من أين أتيت؟" سألته

"من سان كارلوس" أجاب، وابتسم.

كانت تلك هى بلدته الأصلية، لذلك منحه ذكر اسمها سرورا، فابتسم ثم أضاف:

"كنت أرعى حيوانات هناك"

"أوه"

قلت دون أن أفهم تماما.

"أجل"

قال، ثم أضاف:

"لقد مكثت هناك أرعى الحيوانات، كما ترى. كنت آخر من غادر بلدة سان كارلوس"

لم يكن يبدو مثل أحد رعاة الأغنام أو رعاة الماشية. نظرت إلى ملابسه السوداء المتربة، وإلى وجهه الرمادى المترب، وإلى نظارته ذات الإطار المعدنى، وتساءلت "ما هى تلك الحيوانات؟"

"حيوانات مختلفة"

قال، هازا رأسه، ثم استطرد:

"كان علىّ أن أتركها"

كنت أراقب الجسر، ومنطقة "ابرو دلتا" البادية كبلد أفريقى، وأتساءل كم من الوقت سينقضى الآن قبل أن نرى العدو، وكنت أتنصت طوال الوقت لأوّل أصوات من شأنها أن تشير إلى أىّ حدث

غامض قد يعتبر إشارة، ومازال العجوز جالسا هناك. تساءلت:

"ما هى تلك الحيوانات؟"

أوضح:

"كانت هناك ثلاثة حيوانات تعيش معا".

ثم استطرد:

"كانت هناك ماعزتان وقط، كما كان هناك أربعة أزواج من الحمام"

تساءلت:

"أكان عليك أن تتركها؟"

"نعم، بسبب المدفعية. طلب منّى القائد الرحيل بسبب المدفعية"

"أوليست لك أسرة؟"

سألته، وأنا أراقب نهاية الجسر البعيدة، حيث كانت تهرول آخر العربات عبر المنحدر.

"لا"

قا ل، ثم استطرد:

"الحيوانات التى ذكرتها فقط. سيكون القط، بطبيعة الحال، على خير حال. يمكن للقط أن يهتم بنفسه، لكن لا أعتقد أنّ الحال سيكون كذلك مع الآخرين"

سألته:

"ماهو انتماؤك السياسى؟"

أجاب:

"ليس لدىّ انتماء سياسى".

ثم استطرد:

"إننى فى السابعة والستين من عمرى. لقد قطعت الآن اثني عشر كيلومترا، ولا أعتقد أننى أستطيع أن أمضى أكثر من ذلك"

قلت:

"ليس هذا مكانا جيّدا للتوقف".

ثم أضفت:

"لو كنت تستطيع أن تكمل، فهناك شاحنات فى نهاية الشارع تمضى إلى "تورتوسا""

قال:

"سأنتظر بعض الوقت، ثم سأمضى. إلى أين تذهب الشاحنات؟"

أجبته:

"باتجاه برشلونة"

قال:

"أنا لا أعرف أحدا فى ذلك الاتجاه".

ثم أضاف:

"لكننى أشكرك كثيرا. شكرا جزيلا مرة أخرى"

تطلع إلىّ على نحو من يشاطر قلقه مع شخص ما:

"سيكون القط على مايرام، أنا متأكد من ذلك. ليس هناك حاجة للقلق حول القط. لكن الآخرين. الآن. ماذا تعتقد بالنسبة للآخرين؟"

إنها على الأرجح ستجتاز الأمر بشكل طيب".

"أتظنّ ذلك؟"

"لم لا؟".

قلت، وأنا أراقب الضفّة البعيدة، حيث لم تعد هناك الآن أىّ عربات.

"لكن ماذا كانت ستفعل تحت قصف المدفعية، خاصة بعد أن طلبوا منّى المغادرة بسبب المدفعية؟"

تساءلت:

"هل تركت قفص الحمام مفتوحا؟"

"نعم".

إذن، سيطير".

قال:

"نعم، سيطير بالتأكيد. لكنّ الآخرين. ربّما كان من الأفضل عدم التفكير فى الآخرين".

حثثته:

"إذا كنت قد ارتحت، فسأمضى".

ثم أضفت:

"انهض، وحاول الآن أن تمشى"

"شكرا".

قال، ناهضا على قدميه مترنّحا من جانب إلى آخر، ثم جلس متراجعا وسط التراب: "كنت أرعى حيوانات".

ثم قال بصوت خافت، لكنه لم يعد يوجّه الحديث إلىّ:

"كنت أرعى حيوانات فقط".

لم يكن هناك ما يمكن عمله بالنسبة إليه. كان يوم أحد الفصح. وكان الفاشيون يتقدّمون نحو "ابرو". كان يوما ملبّدا بغيوم رمادية ذات سقف منخفض، لذلك لم تظهر طائراتهم. كان ذلك، وحقيقة أنّ القطط تعرف كيف تعتنى بنفسها، هى كلّ ما ناله العجوز من توفيق طيّب، فى أىّ وقت.

مكان نظيف، جيّد الاضاءة

كان الوقت متأخرا جدا، وغادر الجميع المقهى، ماعدا عجوز جلس فى ظلّ أوراق شجرة موضوعة أمام ضوء كهربى. كان الشارع متربا نهارا، لكن الندى رسّب الأتربة ليلا، وقد أحبّ العجوز الجلوس هناك إلى وقت متأخر، لأنّه كان أصمّا، وكان الجوّ الآن بالليل هادئا، فشعر بالفرق. عرف النادلان بداخل المقهى أنّ العجوز أصبح مخمورا قليلا، ورغم أنه كان عميلا جيدا، الاّ أنّهما كانا يعرفان أنّه إذا ما أصبح مخمورا بشدّة، فقد ينصرف دون أن يدفع الحساب، لذلك راحا يراقبانه بحذر.

قال أحد النادلين:

– لقد حاول الانتحار فى الأسبوع الماضى.

– لماذا؟

– كان يائسا.

– لأىّ سبب؟

– لا شىء.

– كيف عرفت أنه كان بدون سبب؟

– لأنّ لديه كثيرا من المال.

جلسا معا إلى مائدة أمام حائط قريبة من باب المقهى، ونظرا إلى الشرفة، حيث كانت كل الموائد خالية، ماعدا المائدة التى جلس إليها العجوز فى ظلّ أوراق شجرة تحركت قليلا مع الريح. مرّ فى الشارع إلى جانبهما جندى وفتاة. شعّ ضوء الشارع على رتبته النحاسية الصفراء القصيرة. لم تكن الفتاة ترتدى غطاء رأس وهى تهرول إلى جانبه.

– سيقبض عليه الحرس خلال فترة حظر التجول

– ماذا يهمّ إذا كان يحصل على ما يريد

– من الأفضل أن يسرع الآن حتى لا يجده الحرس. لقد مرّوا منذ خمس دقائق.

جلس العجوز فى الظلّ ناقرا على صحن الفنجان بكأسه. اقترب النادل الأصغر منه:

– ماذا تريد؟

نظر العجوز إليه، قائلا:

– كأس براندى آخر.

قال النادل:

– ستكون مخمورا.

نظر إليه العجوز. ابتعد النادل. قال لزميله:

– سيبقى طوال الليل. أنا نعسان الآن. إننى لا أذهب أبدا إلى الفراش قبل الثالثة تماما. كان ينبغى أن يكون قد قتل نفسه الأسبوع الماضى.

أخذ النادل زجاجة البراندى وطبق فنجان آخر من وراء الطاولة بداخل المقهى، وتوجّه إلى مائدة العجوز. وضع طبق الفنجان، وملأ الكأس تماما بالبراندى. وقال للأصمّ:

– كان ينبغى أن تكون قد قتلت نفسك الأسبوع الماضى.

أشار العجوز بأصبعه، قائلا:

– كميّة قليلة أخرى.

استمرّ النادل يصبّ فى الكأس لدرجة أنّ البراندى انسكب فيما حوله، وهبط إلى أسفل الجذع على قمة طبق فنجان الركيزة. قال العجوز:

– شكرا لك.

أرجع النادل الزجاجة ثانية إلى داخل المقهى. جلس إلى المائدة مع زميله مرّة أخرى. قال:

– أصبح مخمورا الآن

– إنّه يصبح مخموراً كلّ ليلة.

– لماذا يريد أن يقتل نفسه؟

– كيف لى أن أعرف.

– كيف فعلها؟

– علّق نفسه بحبل.

– من قطع الحبل وأنقذه؟

– ابنة أخيه.

– لماذا يفعلونها؟

– خوفا على روحه.

– ما مقدار المال، الذى حصل عليه؟

– لقد حصل على الكثير.

– يجب أن يكون فى الثمانين من عمره.

– على أيّة حال، ينبغى أن أقول أنّه فى الثمانين.

– أتمنى لو يذهب الآن إلى بيته. إننى لا أذهب إلى الفراش قبل الثالثة تماما. ما هى الساعة المناسبة للذهاب إلى الفراش؟

– إنّه يظلّ متيقظا، لأنّه يحبّ ذلك.

– إنّه وحيد. أنا لست وحيدا. لدىّ زوجة تنتظرنى فى الفراش.

– كانت لديه زوجة ذات مرّة.

– قد لا تكون الزوجة مفيدة له الآن.

– لا يمكنك أن تقول ذلك. قد يكون أفضل حالا مع زوجة.

– إنّ ابنة أخيه ترعاه. لقد أخبرتنى أنها أنقذته.

– أعرف.

– لا أريد أن أبلغ ذلك العمر. أن أكون عجوزا هو شىء بغيض.

– أنا لا أريد أن أنظر اليه. أودّ أن أعود إلى البيت. ليس لديه

اهتمام بأولئك الذين ينبغى أن يعملوا.

نظر العجوز إلى كأسه عبر الزاوية، ثم عبرها إلى النادلين. قال مشيرا إلى كأسه:

– براندى آخر.

اقترب النادل الذى كان فى عجلة من أمره:

– انتهينا.

قال متحدّثا بإغفال الأغبياء فى تركيب الجملة، عند التحدث مع أفراد مخمورين أو أجانب:

– لا مزيد الليلة. حان وقت الاغلاق.

– كأس آخر.

قال العجوز.

– لا. انتهينا.

مسح النادل حافة المائدة بالفوطة، وهزّ رأسه. نهض العجوز. عدّ أطباق الكؤوس ببطء، أخرج محفظة نقود من جيبه، ودفع ثمن المشروبات، تاركا نصف بيزيتا بقشيشا. شاهده النادل يهبط إلى الطريق، عجوزا جدّا يمشى بشكل غير متزن، لكن بكرامة.

تساءل النادل المتأنّى، وهما ينزلان المصاريع:

– لماذا لم تسمح له بالبقاء والشراب؟ إنّها لم تبلغ الثانية والنصف.

– أريد أن أمضى إلى الفراش بالبيت.

– ماذا ستفرق ساعة؟

– تفرق معى أكثر منه.

– إن ساعة لن تحدث فرقا كبيرا.

– أصبحت تتحدث بنفسك كعجوز. يمكنه أن يشترى زجاجة، ويشرب فى البيت.

– إنّه ليس نفس الأمر.

– لا، إنه ليس كذلك.

وافق النادل المتزوّج. لم يرد أن يكون غير عادل. كان متعجّلا فقط:

– وماذا عنك؟ هل تخشى العودة فى الوقت المعتاد إلى البيت؟

– هل تحاول إهانتى؟

– لا، يا رجل، بل أداعبك فقط.

قال النادل، الذى كان فى عجلة من أمره، وهو ينتهى من إنزال المصاريع المعدنية:

– لا. إننى على ثقة. وأنا كلى ثقة.

قال النادل الأكبر:

– إنّ لديك شبابا، وثقة، ووظيفة. أنت تمتلك كلّ شىء.

– وماذا تفتقد أنت ؟

– كلّ شىء ماعدا العمل.

– إنّ لديك كلّ ما عندى.

– لا، لم يسبق لى أن امتلكت الثقة، وأنا لست شابا.

– هيّا. توقف عن الحديث هراء، ودعنا نغلق.

قال النادل الأكبر سنا:

– إننى واحد من أولئك الذين يحبّون المكوث حتى وقت متأخر؟

– مع كلّ أولئك الذين لا يريدون الذهاب إلى الفراش. مع كل أولئك الذين يحتاجون إلى ضوء الليل.

– أريد الذهاب إلى البيت، وإلى الفراش.

– نحن نوعان مختلفان.

قال النادل الأكبر عمرا. وكان قد ارتدى ملابسه الآن، استعداد للعودة إلى البيت:

– إنها ليست فقط مسألة شباب وثقة، رغم أنّهما شيئان جميلان جدا. إننى أحجم كلّ ليلة عن الاغلاق، لأنّه ربّما يكون هناك شخص ما يحتاج إلى المقهى.

– يا رجل، هناك حانات مفتوحة طوال الليل.

– أنت لا تفهم. إنّ هذا مقهى نظيف ولطيف. إنه جيّد الإضاءة. الضوء جيّد جدا، وهناك الآن أيضا ظلال أوراق الشجرة.

قال النادل الأصغر سنا:

– ليلة سعيدة.

ردّ الآخر:

– ليلة سعيدة.

تابع الحديث مع نفسه، وهو يطفئ الضوء الكهربى. كان هو الضوء بطبيعة الحال، لكن من الضرورى أن يكون المكان نظيفا أيضا، ولطيفا. أنت لا تريد موسيقى. من المؤكد أنك لا تريد

موسيقى. كما لا يمكنك أن تقف أمام بار بكرامة، على الرغم من أنّ ذلك هو كل ما حصلت عليه من تلك الساعات. ممّا يخاف؟ إنّه ليس خوفا أو فزعا، بل كان عدما عرفه تمام المعرفة. إنّه عدم مكتمل، وكان الرجل عدما أيضا. كان ذلك هو الأمر، وكان الضوء هو كلّ المطلوب، نظافة معينة، ونظام. عاش البعض فيه، ولم يشعروا به أبدا، لكنّه عرف أنّ مرجع كل ذلك جميعا إلى عدم ثم عدم عدم ثم عدم. تمثل عدمنا فى "نادا" (×)، "نادا"، سيكون اسم مملكته هو "نادا"، فى "نادا" مثلما هى فى "نادا". امنحنا هذا الـ"نادا" فى حياة "نادانا" اليومية، و"نادانا" هى "نادانا"، مثلما نحن "نادانا، و"نادانا" ليست فى "نادا" بل نجّنا من "نادا"، ثم "نادا". مرحبا بالعدم مليئا بالعدم، عدما معك. ابتسم، ووقف أمام بار يتألق بضغط بخار ماكينات القهوة. تساءل البارمان:

– ماذا تطلب؟

– "نادا"

قال البارمان وهو يبتعد:

– مخبول آخر.

قال النادل:

– كأس صغير.

صبّه البارمان له. قال النادل:

– الضوء مشرق وممتع، لكن البار غير لامع.

نظر إليه البارمان، دون أن يردّ. كان الوقت متأخّرا للحديث.

تساءل البارمان:

– هل تريد طلبا آخر؟

– لا، شكرا لك.

قال النادل ذلك، وخرج. إنّه لم يحبّ البارات والحانات. إنّ مقهى نظيف، جيّد الاضاءة، هو شيء مختلف تماما. والآن دون أىّ مزيد من التفكير، سيمضى إلى غرفته بالبيت. قد يرقد فى الفراش، وقد يأخذه النوم أخيرا مع ضوء النهار. قال لنفسه، على أيّة حال، من المحتمل أن يكون هذا مجرّد أرق. لاشك أنّه لدى كثيرين أيضا.

(*) "نادا": كلمة للتعبير عن الشعور بالعدم والاغتراب والوحدة، ولشدة تأثر الراوى فإنه يوردها فى سياق هو أقرب لطقس يومى.

مخيّم هندى

اصطف هناك زورق آخر على شاطئ البحيرة. وقف هنديان ينتظران.

دخل "نيك" ووالده إلى مؤخرة القارب، ودفعه الهنديان إلى الماء، واتخذ أحدهما مكانا للتجذيف. جلس العم "جورج" فى مؤخرة زورق المخيم. دفع الهندى الشاب زورق المخيم، ودخل وراء العم "جو" كى يجذف.

انطلق الزورقان فى الظلام. سمع "نيك" صوت احتكاك مجذافى الزورق الآخر بمسنديهما، أمامهما مباشرة فى الضباب. جذّف الهنديان بدفعات متلاطمة سريعة. استرخى "نيك" للوراء تحيطه ذراع الأب. كان الجو باردا وسط الماء. وبينما يجذف الهندى بقوة، كان القارب الآخر ينساب متقدما طوال الوقت فى الضباب.

سأل "نيك":

– إلى أين نحن ذاهبون، يا أبى؟

– إلى مخيّم هندى. هناك امرأة هندية شديدة المرض.

– أوهـ.

وجدا أنّ القارب الآخر قد رسى عبر الخليج. كان العم "جورج" يدخن سيجارا فى الظلام. سحب الهندى الشاب الزورق إلى الشاطئ. منح العم "جورج" سيجارا لكلّ من الهنديين.

صعدوا من الشاطئ عبر مرج كان مبللا بالندى متتبعين الهندى الشاب الذى يحمل فانوسا. ثم دخلوا إلى الغابات، متتبعين أثر طريق قطع أشجار، الذى التفّ حول التلال. كان السير أخفّ كثيرا على طريق قطع الأشجار، لأنّ قطع الأشجار كانت قد أبعدت على كلا الجانبين. توقف الهندى الشاب، وأطفأ فانوسه، ومضوا جميعا كجدار على امتداد الطريق.

وصلوا إلى منحنى، خرج كلب ينبح. بدت أمامهما أنوار قادمة من الأكواخ، حيث يعيش الهنود جامعو اللحاء. اندفعت إليهم كلاب أخرى. أعادها الهنديان إلى الأكواخ. كان هناك ضوء فى نافذة أقرب كوخ إلى الطريق. وقفت فى المدخل سيدة مسنّة تحمل مصباحا.

بالداخل، رقدت امرأة شابة على سرير خشبى. كانت تحاول أن تلد طفلها لمدّة يومين بمساعدة كلّ سيدات المخيم المسنات. انتقل

الرجال إلى أعلى الطريق ليجلسوا فى الظلام، ويدخنوا متجاهلين الضجة التى تثيرها تلك المرأة. صرخت المرأة، بينما كان "نيك" والهنديان يتبعان والده والعم "جو" إلى الكوخ. كانت ترقد ضخمة جدا تحت لحاف على سرير منخفض، وقد حوّلت رأسها إلى جانب. كان زوجها على السرير العلوى يدخن سيجارا. كان قد قطع ساقه منذ ثلاثة أيام ببلطة بشكل شديد السوء. بدت رائحة الغرفة سيئة للغاية.

طلب والد "نيك" أن يسخّن بعض الماء على الموقد. بينما كان يسخن الماء، تحدّث إلى "نيك"، قائلا:

– ستضع هذه السيدة طفلا، يا نيك"

– أعرف.

قال "نيك".

ردّ الأب:

– أنت لا تعرف. أنصت إلىّ. إنّ ما يحدث لها هو ما يعنى أنها فى حالة مخاض. الرضيع يريد أن يولد، وهى تريده أن يولد، وكلّ عضلاتها تحاول أن تجعل الرضيع يولد. وهذا هو ما يحدث عندما تصرخ.

– إنى أرى.

قال "نيك". عندئذ صرخت المرأة، فتساءل "نيك":

– أوهـ، يا أبى. ألا يمكن أن تمنحها شيئا يحملها على الكفّ عن الصراخ؟

أجاب الأب:

– لا. ليس لدىّ أىّ مسكن. لكن صرخاتها ليست مهمة، فأنا لا أسمعها لأنّها ليست مهمة.

تدحرج الزوج على السرير العلوى باتجاه الحائط.

أشارت المرأة التى بالمطبخ إلى الطبيب بأنّ الماء قد سخن. مضى والد "نيك" إلى المطبخ، وسكب من غلاية كبيرة ما يقرب من نصف المياه فى حوض. ثم وضع أشياء عديدة أخرجها من منديل كانت ملفوفة به فى الماء الباقى بالغلاية، قائلا:

– يجب غلى هذه.

وبدأ ينظف يديه فى حوض الماء الساخن بقطعة صابون أحضرها من المخيّم. راقب "نيك" يدى أبيه، وهما تغتسلان بالصابون. قال والده، بعد أن غسل يديه بعناية شديدة واجتهاد:

– كما ترى، يا "نيك. يفترض أن تولد رأس الرضيع أولا، لكن أحيانا لا يحدث ذلك. وحين لا يحدث ذلك، يسبب الأطفال بعض الأذى للجميع. ربّما سأقوم بإجراء عملية لهذه السيدة. سنعرف بعد قليل.

دخل الأب، عندما أصبح راضيا عن يديه، وشرع فى العمل، قائلا:

– اسحب ذلك اللحاف، هل تفعل، يا جورج؟ لعلّ من الأفضل ألاّ ألمسه.

فى وقت لاحق، عندما بدأ إجراء العملية، أمسك العم "جورج"

وثلاثة هنود بالمرأة بثبات. عضّت المرأة ذراع العم "جورج"، فصرخ قائلا:

– اللعنة على هذه الهندية!

ضحك الشاب الهندى، الذى جذف مع العم "جورج". أمسك "نيك" الحوض لوالده. استغرق كلّ ذلك وقتا طويلا.

التقط والده الطفل، وصفعه على ظهره حتى يتنفس، ثم ناوله إلى السيدة العجوز، قائلا:

– أنظر يا "نيك". أنه ولد. كيف ترى أن تكون طبيبا مقيما؟

– حسنا.

أجاب نيك، وهو ينظر إلى بعيد حتى لا يرى ما يفعله والده.

قال والده، وهو يضع شيئا فى الحوض:

– هاك. ذلك ما جمّعه.

لم ينظر نيك إليه، فاستطرد والده:

– الآن. هناك بعض الغرز ينبغى القيام بها. يمكنك أن تشاهد ذلك، أو لا تشاهده، يا نيك، كما تريد. سأقوم بخياطة الشقّ الذى صنعته.

لم يتابع نيك، فقد انقضى فضوله منذ وقت طويل.

انتهى والده، ونهض. كما نهض العمّ جورج والهنود الثلاثة. حمل "نيك" الحوض إلى المطبخ.

نظر العم جورج إلى ذراعه. ابتسم الشاب الهندى، وهو يتذكر ما حدث.

قال الطبيب:

– سأضع بعضا من البيروكسيد على هذا، يا جورج.

انحنى على السيدة الهندية. كانت هادئة الآن، وعيناها مغلقتان. بدت شديدة الشحوب. لم تكن تدرى ما آل إليه أمر الطفل، أو أىّ شىء آخر.

قال الطبيب، وهو ينهض:

– سأعود فى الصباح.

ثم استطرد:

– كان ينبغى أن تكون ممرضة سانت اينياس هنا قبل ظهر اليوم، وأن تحضر كلّ ما نحتاجه.

كان يشعر بإثارة وميل للثرثرة، مثل لاعبى كرة القدم فى حجرة الملابس بعد أداء مباراة. قال:

– يصلح هذا موضوعا لمجلة طبية، يا جورج. القيام بعملية ولادة قيصرية بمدية جيب. خياطة الغرز بخيوط رفيعة من طلائع أمعاء.

كان العم جورج يقف أمام الجدار، ناظرا إلى ذراعه. قال:

– أوهـ، أنت رجل عظيم، وكلّ شىء على ما يرام.

ردّ الطبيب:

– كان ينبغى أن تلقى نظرة على الأبّ الفخور. إنهم عادة ما يعانون بشكل سىّء من مثل هذه الأمور الصغيرة. لابد لى من القول أنّه تقبّل الأمر بشكل هادئ تماما.

سحب الغطاء ثانية عن رأس الهندية، خرجت يده مبللة. ارتقى

إلى حافة السرير المنخفض مع مصباح فى يده وألقى نظرة. يرقد الهندى ووجهه نحو الحائط. كان حلقه قد قطع من الأذن إلى الأذن. تدفقت الدماء مكونة بركة، حيث تدلى جسده من السرير. استراحت رأسه على ذراعه اليسرى. وعلى الأغطية، ظلت حافة الشفرة مفتوحة لأعلى. قال الطبيب:

– اخرج نيك من الكوخ، يا جورج.

لم تكن هناك حاجة لذلك. كان نيك يقف عند باب المطبخ، ملقيا نظرة عميقة على السرير السفلى، عندما أمال والده رأس الهندى للوراء، وهو يمسك مصباحا فى إحدى يديه.

كانت هناك مجرّد بداية لانبثاق ضوء النهار، عندما ساروا على طول طريق قطع الأخشاب، راجعين إلى البحيرة.

– إننى شديد الأسف لإحضارك معى، يا نيكى.

قال أبيه، بعد أن ذهبت كلّ نشوة ما بعد العملية. ثم استطرد:

– كانت فوضى مروّعة، تلك التى وضعتك فى وسطها.

تساءل نيكى:

– هل تعانى السيدات دائما مثل هذه المعاناة، للحصول على الأطفال؟

– لا، لقد كان ذلك استثنائيا للغاية.

– لماذا قتل نفسه، يا أبى؟

– لا أدرى يا نيك. أعتقد أنّه لم يحتمل بعض الأمور.

– هل يقدم كثيرمن الرجال على قتل أنفسهم، يا أبى؟

– ليس كثيرا، يا نيك.

– هل تفعل ذلك كثير من النساء؟

– قلما.

– ألا يفعلن ذلك إطلاقا؟

– أوهـ، نعم. إنهن يفعلن أحيانا.

– أبى؟

– نعم.

– أين ذهب العم جورج؟

– سيكون على ما يرام.

– هل الموت صعب، يا أبى؟

– لا. أنه سهل تماما، كما أعتقد، يا نيك. يتوقف الأمر على كثير.

كانا جالسين فى القارب. نيك فى المؤخرة، ووالده يجذف. أشرقت الشمس فوق التلال. قفزت سمكة قاروس، صانعة دائرة فى الماء. دلى نيك يده فى الماء. شعر بالدفء فى برد الصباح القارص.

أحسّ نيك، وهو جالس فى الصباح المبكر وسط البحيرة، فى مؤخرة القارب مع أبيه وهو يجذف، بيقين تام بأنّه لن يموت أبدا.

عام ١٩٢٤

حكاية قصيرة جدا

حملوه، ذات مساء ساخن إلى السطح فى "بادو"، فأمكنه أن يلقى نظرة على قمة المدينة. كانت هناك رؤوس مداخن فى السماء. أظلمت الدنيا بعد وهلة، وظهرت أضواء الكشافات. هبط الآخرون، أخذوا الزجاجات معهم. أمكنه، هو و"لوز" أن يسمعاهم، وهم هناك على الشرفة. جلست "لوز" على الفراش. كانت عذبة وهادئة فى الليل الساخن.

استمرت "لوز" مناوبة ليلا لمدّة ثلاثة أشهر. سمحت إدارة المستشفى لها. أعدّوا مائدة العمليات، وأثناء إجراء العملية كانت لهم مداعبة حول صديقة أو حقنة شرجية. راح تحت تأثير التخدير، ممسكا نفسه بإحكام، حتى لا يفشى أىّ سرّ خلال وقت الثرثرة الساذجة. اعتاد أن يأخذ درجات الحرارة بنفسه، بعد أن حصل على

عكازين، حتى لا يتحتم على "لوز" أن تنهض من الفراش. كان هناك قليل من المرضى، عرفوا جميعا بالأمر. كم أعجبوا جميعا بـ"لوز". وبينما كان يمشى عائدا عبر الردهات، فكّر فى "لوز" وهى فى فراشه.

قبل أن ينتقل ثانية إلى جبهة، ذهبا إلى كاتدرائية "دومو" بميلان، وصليا. بدا المكان مظلما وهادئا، وكان هناك متعبّدون آخرون. أرادا أن يتزوجا، لكن لم يكن هناك وقت كاف لإشهار الزواج بالكنيسة، ولم يكن لدى أىّ منهما شهادة ميلاد. شعرا كما لو كانا متزوّجين، لكنهما أرادا أن يعرف الجميع بالأمر بجعله كذلك، بحيث لا يمكنهما أن يفقداه.

كتبت له "لوز" عديدا من الرسائل، لم يحصل عليها أبدا إلاّ بعد الهدنة. جاءت خمس عشر رسالة فى مجموعة إلى الجبهة، رتبها حسب التواريخ، وقرأها مباشرة جميعها. كانت تدور حول المستشفى، وكم أحبته، وكم كان مستحيلا أن تستمرّ بدونه، وكم كان رهيبا افتقاده أثناء الليل.

اتفقا بعد الهدنة، على أنّه ينبغى له العودة إلى بلاده للحصول على عمل حتى يتسنى لهما أن يتزوجا. لن تأتى "لوز" للوطن حتى يحصل على عمل جيّد، ويمكنه عندئذ أن يأتى إلى نيويورك لمقابلتها. كان مفهوما، أنّه لن يشرب، وأنّه لا يرغب فى رؤية أىّ من أصدقائه، أو أىّ شخص آخر فى الولايات المتحدة. كان جلّ اهتمامه منحصرا

فى أن يحصل على وظيفة، وأن يتزوج. تشاجرا فى رحلة القطار من "بادو" إلى "ميلان" حول عدم رغبتها فى العودة إلى الوطن فورا. تبادلا قبلات الوداع، عندما حان أوان الرحيل فى محطة "ميلان"، لم يكونا قد أنهيا الشجار بعد، فشعر بغثيان للوداع بهذا الشكل.

ذهب إلى أمريكا على متن سفينة من "جنوا". رجعت "لوز" إلى "بوردو" لافتتاح مستشفى. كان هناك وحدة وأمطار، وكانت هناك كتيبة "آرديتى" من الجيش الإيطالى مناهضة للنازية، معسكرة فى المدينة. كانوا يعيشون فى مدينة ممطرة موحلة فى الشتاء. مارست معظم الكتيبة الحبّ مع "لوز"، ولم تكن تعرف أىّ أيطاليين قبل ذلك، وأخيرا كتبت إلى الولايات المتحدة رسالة بأنّ ما بينهما لم يكن سوى علاقة غرامية بين فتى وفتاة. كانت آسفة، وعرفت أنّه من المحتمل ألاّ يكون قادرا على أن يفهم، لكن ربّما يغفر لها يوما ما ويكون ممتنًّا، وأعربت عن أملها فى مفاجأة غير متوقعة على الإطلاق، بأن تتزوّج من شخص آخر فى الربيع. وقالت أنها أحبّته كما كان الحال دائما، لكنها أدركت الآن أنها لم تكن سوى علاقة غرامية بين فتى وفتاة. ثم أعربت عن أملها فى أن يكون له مستقبل باهر، وأنها تثق به بشكل مطلق. وقالت أنها عرفت أنّ ذلك كان للأفضل.

لم يتزوجها الراشد فى الربيع، ولا فى أىّ وقت آخر. لم تحصل "لوز" أبدا على ردّ لرسالتها إلى شيكاغو حول هذا الموضوع. بعد وقت قصير، التقط عدوى سيلان من فتاة مبيعات قابلها، أثناء ركوبه سيارة أجرة عبر حديقة "لينكولن".

الفصل الثانى:

قصص الإنجليزية دوريس ليسنج
(نوبل ٢٠٠٧)

الإنجليزية دوريس ليسنج (نوبل ٢٠٠٧)

عندما أعلنت الأكاديمية السويدية فوز الكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج بجائزة نوبل فى الآداب عام ٢٠٠٧، كانت بذلك أكبر شخص على الإطلاق يفوز بالجائزة سواء بين الرجال أو النساء (٨٨عاما)، فهى من مواليد ٢٢ أكتوبر ١٩١٩. كان أكبر فائز سابق هو الألمانى تيودور مومسن، الذى كان عمره ٨٥ عاما حين فاز بجائزة نوبل عام ١٩٠٢ .

عرف العالم العربى دوريس ليسنج، من ترجمات لبعض أعمالها، منها روايات "الشتاء فى يوليو" عن دار إلياس بالقاهرة، ترجمة عنان على الشهاوى، الذى ترجم لها أيضا مجموعة قصصية بعنوان «الفهد»، صدرت عن هيئة قصور الثقافة. كما صدر عن دار المأمون ببغداد روايتا «مذكرات من نجا» ترجمة محمد درويش، و"الصيف

قبل الظلام" ترجمة سمير عبدالرحيم الجلبى.

ولدت دوريس فى كرمنشاه بفارس (إيران حاليا) عام ١٩١٩، وفى عام ١٩٢٥، انتقلت أسرتها إلى مستعمرة بريطانية جنوب روديسيا (زيمبابوى حاليا) وهى فى الخامسة من عمرها، حيث عاشت حياة صعبة فى مزرعة للموز. التحقت دوريس بمدرسة رومانسية كاثوليكية للبنات، بالرغم من أن أسرتها ليست كاثوليكية. غادرت المدرسة فى الرابعة عشر من عمرها، وبدأت تعتمد على نفسها فى التعليم منذ تلك اللحظة فصاعدا، وكانت أمها تمدها بالروايات التى كانت تطلبها من إنجلترا خصيصا من أجلها.

تزوجت مرتين، وطلقت مرتين، ولديها ثلاثة أبناء. كان زواجها الأول من تشارلس ويسدوم واستمر من عام ١٩٣٩ حتى ١٩٤٣، وكان زواجها الثانى من جوتفريد ليسنج، الذى أصبح بعد ذلك سفيرا لألمانيا فى أوغندا، واستمر هذا الزواج من ١٩٤٥حتى ١٩٤٩.

تم ترجمة خمس قصص لها متوافرة جميعا على النت، ومنها قصتا "هجوم معتدل للجراد" التى نشرت بمجلة "ذا نيويوركر بتاريخ ٢٦ فبراير ١٩٥٥ وقصة "أنا بصفتى رياضية" التى نشرت أيضا بمجلة "ذا نيويوركر" بتاريخ ٢١ يناير ١٩٥٦، كما نشرت قصة "فى المعرض الوطنى" فى كتاب "مختارات من الكتابة الجديدة" السنوية، الصادر عن القنصلية البريطانية – العدد ١٥ عام ٢٠٠٧.

رحلة طيران

كان برج الحمام فوق رأس العجوز رفا طويلا ذا أسلاك على شكل شبكة، منتصبا على ركائز فوق سطح الأرض، وممتلئا بحمام أنيق متبختر، تكسّرت أشعة الشمس على صدورها الرمادية إلى أقواس قزح صغيرة. استكانت أذناه على دندنتها، بينما انجذبت يداه إلى أعلى تجاه حمامته البيتية الحبيبة، ذات الجسم الفتى السمين ؛ التى وقفت ساكنة حين رأته، وهدلت بعنف بعينين لامعتين .

– جميلة، جميلة، جميلة.

قال، وهو يقبض عليها ويسحبها إلى أسفل، شاعراً بمخالبها الباردة المرجانية تضيق حول أصبعه. أراح الطائر راضياً برّقة على صدره، وانحنى باتجاه شجرة، محملقا بعيداً إلى ما وراء برج الحمام، إلى المنظر الطبيعى، فى فترة ما بعد الظهيرة المتأخرة تلك،

وسط إمتدادات وفراغات الشمس والظل، والتربة الحمراء القائمة، التى تفتتت إلى كتل ترابية عظيمة، امتدت باتساع على طول الأفق، بينما رسمت الأشجار مجرى الوادى كطريق من النجيل الأخضر الخصب.

ارتحلت عيناه على طول هذا الطريق باتجاه بيته، حتى رأى حفيدته تتأرجح قرب بوابته تحت شجرة لوز وقد انساب شعرها متموّجاً على ظهرها فى ضوء الشمس، وتردّدت ساقاها العاريتان وسط زوايا فروع شجرة اللوز، التى بدت بنية متألقة عارية وسط براعم شاحبة .

كانت تحملق إلى ما وراء أزهار القرنفل، عبر كوخ السكك الحديدية حيث يعيشون، على طول الطريق إلى القرية .

تغّير مزاجه. فتح كفّه بحرية للحمامة كى تبدأ رحلة الطيران، ثم أمسك بها ثانية فى اللحظة التى كانت تفرد فيها جناحيها. شعر بالجسم السمين يتوتر ويقاوم تحت أصابعه. وفى فورة غيظ قلق مفاجئة، حبس الطائر فى صندوق صغير وأغلق الرتاج:

– الآن، ستبقين هناك.

غمغم، وأدار ظهره إلى رفّ الطيور. تحّرك بحذر على طول الحاجز ؛ مترّصداً حفيدته، التى كانت الآن تحلّق عبر البوابة، وقد انساب رأسها بين ذراعيها، وهى تغنّى. امتزج الصوت الرقيق السعيد مع هديل الحمام، وتصاعد غضبه .

– هاى !

صاح، مشاهدا قفزتها حين غادرت البوابة، وهى تنظر إلى الوراء. أسبلت جفنيها بنفسها، وقالت بصوت أنيق محايد:

– هالّو، جدّى

وتحرّكت بأدب باتجاهه، بعد نظرة متريثة إلى الوراء للطريق .

– هيه، هل تنتظرين ستيفن ؟

تساءل، مكوّرا أصابعه كمخالب باتجاه راحة يده

– أى اعتراض ؟

سألت برقة، رافضة أن تنظر إليه .

واجهها وقد ضاقت عيناه، واندفع كتفاه إلى الأمام بأحكام كعقدة ألم صعبة، بينما احتوت الفتاة أناقة الطيور، ضوء الشمس، والزهور. قال:

– هيه، هل تظنّين أنك كبيرة بما فيه الكفاية، حتى تراودى عن نفسك ؟

هزّت الفتاة رأسها على الجملة التقليدية القديمة، وعبست:

– أواه، يا جدى !

– هاى، أتظنين أنك تريدين أن تتركى البيت ؟ أتظنين أنك تستطيعين التجوّل فى الحقول ليلا ؟

جعلته ابتسامتها يراها، يتذكرها معه، وهما فى كل مساء من نهاية هذا الشهر الصيفى الدافئ، وقد تشابكت يدها فى يده، على طول الطريق إلى القرية بتلكما اليدين الحمراوين، مندمجين معاً. كان للشاب ابن مدير مكتب البريد جسم فائر، عندئذ صعد البؤس إلى

رأسه، وصاح بغضب:

– سأخبر أمك !

– اخبرها فوراً !

قالت ضاحكة، ورجعت ثانية إلى البوابة. سمعها تغنى له، حتى يسمع :

" خبأتك تحت جلدى ،

خبأتك عميقا فى القلب .. "

– كلام فارغ.

صاح.

– كلام فارغ. مقطع وقح من كلام فارغ !

هادراً من بين أنفاسه، استدار باتجاه برج الحمام، الذى كان ملاذه من المسكن الذى شارك فيه ابنته وزوجها وأطفالهما. لكن المسكن أصبح الآن خاليا. مضت كل الشابات مع ضحكاتهن ومضايقاتهن وشجاراتهن، بعد أن أمكنهن أن يتركوه وحيداً غير مدلل، مع تلك المرأة ذات الواجهة المربعة والعينين الهادئتين، ابنته .

توقف مغمغما أمام برج الحمام، ممتعضاً يستغرقه هديل الحمام. صاحت الفتاة من البوابة:

– اذهب وقل ! تقدم. ماذا تنتظر ؟

بعناد اتخذ طريقه إلى البيت، وهو يتلفّت إلى الوراء عليها، بنظرات متواصلة سريعة وامضة حزينة، لكنها لم تتطلع إليه أبداً. أثّر فيه جسمها المتصلب الشاب المتوتر، وأصابه بالحب والندم، فتوقف:

– لكنى لم أكن أعنى ..

غمغم، منتظراً أن تستدير وتجرى إليه:

– أنا لم أكن أعنى.

لم تستدر إليه. كانت قد نسيته، حين ظهر الشاب ستيفن عبر الشارع بشئ فى يده. هدية لها ؟ تصلّب العجوز وهو يراقب البوابة تدور للوراء، والشابان يتعانقان فى ظلال شجرة اللوز القاتمة. استقرت حفيدته، عزيزته، بين ذراعى ابن مدير مكتب البريد وتدفق شعرها على كتفيه. صاح العجوز بامتعاض:

– إنى أراك.

لم يتحركا. مشى متثاقلا إلى البيت المدهون باللون الأبيض، وسمع صرير الشرفة الخشبية بغضب على وقع أقدامه. كانت أخته تحيك ثياباً فى الغرفة الأمامية، وقد ظهرت وهى تلضم الخيط بالإبرة فى الضوء .

توقف ثانية ناظراً وراءه إلى الحديقة رآهما يمشيان الهوينى الآن ضاحكين بين الشجيرات، وبينما هو يراقب، رأى الفتاة تهرب من الشاب بحركة عابثة مفاجئة وتختفى بين الأشجار وهو يلاحقها. سمع صيحات، ضحك، وصرخة، ثم حلّ صمت. غمغم بأسى:

– لكن الأمر ليس كذلك على الإطلاق. إنه ليس كذلك. كيف لا ترى ؟ جرى وقهقهة وتقبيل وتقبيل، ستؤدى إلى شئ مختلف تماماً.

نظر إلى أخته ببغض ساخر، كارهاً نفسه. لقد وقعا وانتهيا، كلاهما، لكن الفتاة مازالت تجرى بحرية .

– ألا ترين ؟

لعن حفيدته المختفية، التى كانت ترقد فى تلك اللحظة على النجيل الأخضر الكثيف مع ابن مدير مكتب البريد. نظرت ابنته إليه، وانغلق جفناها برفق مجهدين. أمرته ضاحكة:

– هيَّ طيورك للنوم ؟

– لوسى

قال متعجلا:

– لوسى ..

– حسنا، ما الأمر الآن ؟

– إنها مع ستيفن فى الحديقة

– عليك الآن أن تجلس وأن تتناول الشاى الخاص بك

مشى متثاقلا ببطء باختياره، ضارباً بقدمه، ضارباً على السطح الخشبى المجوف، وصائحا:

– سوف تتزوجه. أنا أقول لك، ستتزوج قريبا !

نهضت أخته بنعومة، وأحضرت له فنجانا، ووضعت له طبقا.

– لا أريد أى شاى. أقول لك، أنا لا أريده

– الآن، الآن ..

غنّت أخته بصوت رقيق منخفض:

– ما الخطأ فى ذلك ؟ لم لا ؟

– إنها فى الثامنة عشرة. الثامنة عشرة!

– لقد تزوجت فى السابعة عشرة ولم أندم أبدا

– كاذبة

قال:

– كاذبة. ثم سيكون عليك أن تندمى. لماذا تجعلين بناتك يتزوجن ؟ إنه أنت من يفعل ذلك. لماذا تفعلين ذلك ؟ لماذا ؟

– لقد تمّ الأمر للبنات الثلاث الأخريات بشكل جيد، حين نلن ثلاثة أزواج رائعين. فلماذا لا يكون الأمر كذلك مع أليس ؟

– إنها الأخيرة

زام:

– ألا يمكن أن نحتفظ بها لفترة أطول قليلا

– انتبه الآن يا أبى. ستنزلق البنت إلى الشارع، هذا كل ما فى الأمر. لكن بعد الزواج سوف تكون هنا كل يوم ؛ كى تراك

– لكنه ليس نفس الأمر

مفكراً فى البنات الثلاث الأخريات، اللاتى تحوّلن منذ عدّة أشهر من طفلات وقحات ساخرات إلى عقيلات شابات جادات. قالت:

– أنت لم تفعل مثل ذلك حين تزوجت. لم لا ؟ إنه نفس الأمر يحدث فى كل زمن. حين تزوجت جعلتنى أشعر كما لو أننى أخطأت، وفعلت مع بناتى نفس الشئ. لقد جعلتهن جميعاً باكين وبؤساء بنفس الطريقة التى تمضى بها. دع أليس وحدها. إنها سعيدة.

تنهدت تاركة عيناها تتريثان على الحديقة المشرقة:

– أنها ستتزوج الشهر القادم. لا يوجد مبرر للانتظار

تساءل، غير مصدق:

– هل قلت أنهما يمكن أن يتزوجا ؟

– نعم يا أبى. لم لا ؟

قالت ببرود، متناولة ما تحيكه. تخضّلت عيناه، وخرج إلى الشرفة. انتشر بلل على ذقنه، فأخرج منديله ومسح وجهه كلّه. كانت الحديقة خاوية.

خرج الشابان من ركن مجاور، لكن وجهيهما لم يكونا ضدّه، بينما استقرت حمامة صغيرة فى قبضة يد ابن مدير مكتب البريد وضوء يتألق على صدرها، سرعان ما قدمها إليه. قال العجوز، تاركاً دموعاً تنزلق على ذقنه:

– من أجلى ؟.. من أجلى ؟

– هل تعجبك ؟

جذبت الفتاه يد جدّها وتعلقت بها:

– إنها من أجلك يا جدى. أحضرها ستيفن من أجلك .

تعلقا به بتأثر، ثم التصقا بجسمه، محاولين أن يخفّفا بعضاً من بؤسه ومن دموع عينيه المخضلتين. تناولا ذراعيه، كل من جانب، محيطين به، وقاداه إلى رّف الطيور وهما يلاطفانه، معبريّن دون كلمات أن شيئا لن يتغّير، أن شيئا لا يمكن أن يتغير، وإنهما سيكونان معه دائما. وكان الطائر دليلاً على ذلك، قالا عبر عيونهما السعيدة، التى كانت تتركز عليه بثبات " هكذا يا جدى. إنها لك. إنها من أجلك "

راقباه وهو يمسكها فى قبضة يده، متحسسا نعومتها، وظهرها

الذى دفأته أشعة الشمس، ثم وهو يتابع حركة الجناحين وتوازنهما.

قالت الفتاة بحميمية:

– يجب أن تحبسها لفترة حتى تعرف أن هذا هو بيتها

– تعلمين جدكّ كيف يمصّ البيض ؟

زام العجوز متحرّرا من نصف غضبه ببطء، تراجع الشابان ضاحكين:

– نحن مسروران أنها أعجبتك

ابتعدا، الآن بجدية محددى الهدف نحو البوابة حيث مضيا، وظهريهما إليه، وهما يتحدثان بهدوء أكثر مما يستطيع أى فرد. صدمته جديتهما المتنامية، جعلته وحيدا، لكنها أيضا هدّأته، واستخرجت اللسعة من عثرته حتى رآهما مثل جروين صغيرين على النجيل. كانا قد نسياه ثانية. حسنا، هذا ما يجب أن يفعلاه. أعاد العجوز تأكيد الأمر لنفسه، شاعرا أن حلقه قد جاش بالعبرات وارتعشت شفتاه، فأمسك بالحمامة الجديدة أمام وجهه، مقبّلا ريشها الفضى، ثم أغلق عليها فى صندوق، وأخرج حمامته المفضلة:

– الآن يمكنك أن تذهبى

قال بصوت مرتفع، وقد أمسك بها بشكل يحفظ توازنها، فى وضع استعداد للطيران، بينما كان ينظر إلى الحديقة نحو الولد والبنت. حينئذ ألّم به ألم الفقد، فأطلق الطائر من قبضته، وشاهده وهو يحلّق فى الجوّ. عندها ارتفعت سحابة من الطيور فى السماء من برج الحمام، وعلا أزير وهسيس الأجنحة .

نسيت أليس وستيفن ماكانا يتحدثان به، وراحا يراقبان الطيور.

كما وقفت فى الشرفة، تلك المرأة، ابنته، محملقة، وقد ظللت عينيها بيدها، التى ما زالت تمسك ما تحيكه .

بدا للعجوز أن فترة ما بعد الظهيرة كلها ما تزال تترقب إيماءته لضبط النفس، لدرجة أن أوراق الأشجار توقفت عن الاهتزاز .

ترك ذراعيه يسقطان إلى جانبيه، ووقف منتصبا بعينين جافتين وهادئتين، محملقا إلى السماء .

ارتفعت سحابة الطيور الفضية المضيئة إلى أعلى وأعلى، مخترقة الفضاء بأجنحتها الحادة، عابرة فوق الأرض المظلمة المحروثة، ونطاق الأشجار الأكثر ظلمة، ومراعى النجيل اللامعة، حتى طفت عالياً فى ضوء الشمس، كسحابة من ذرات غبار دقيقة .

دارت الطيور دورة واسعة، مائلة بأجنحتها، حتى تسربت من بينها ومضات من ضوء، ومضة وراء ومضة، ثم انحدرت واحدة إثر الأخرى، من ضوء الشمس فى السماء العليا إلى الظل، عائدات إلى الأرض الظليلة عبر الأشجار والنجيل والحقول، عائدات إلى الوادى والمأوى وسط الليل .

كانت الحديقة كلها مثيرة وبهيجة بالطيور العائدة. ثم حلّ صمت، وأصبحت السماء خالية .

إستدار العجوز ببطء مستغرقاً وقتاً. تحركت عيناه ؛ ليبتسم بفخر لحفيدته فى أسفل الحديقة. كانت تحملق إليه. لم تكن تبتسم. كانت عيناها مفتوحتين على سعتهما، وشاحبه فى الظل البارد، ورأى دموعا تتساقط مرتعشة على وجهها .

هجوم معتدل للجراد

كانت الأمطار ذلك العام جيّدة، تأتى بشكل رائع، تماما كما احتاجتها المحاصيل، أو هكذا اعتقدت مارجريت، حين قال الرجال أنها ليست سيئة تماما. لم يكن لها رأى خاص بها حول مواضيع مثل الطقس، لأنه حتى أن تعرف عن شىء بسيط مثل الطقس، تحتاج إلى خبرة، لم تحصل عليها مارجريت، لأنها ولدت وترعرعت فى جوهانسبرج. كان الرجلان، هما زوجها ريتشارد، والعجوز ستيفن، والد ريتشارد، الذى كان فلاحا فيما مضى، وقد يتجادل هذان الاثنان لساعات عمّا إذا كانت الأمطار مدمّرة أو تثير السخط بشكل عادى فقط. كانت مارجريت فى المزرعة الآن منذ ثلاث سنوات. ما تزال لم تفهم لماذا لم يفلسا معا، طالما أنه لم يكن لدى الرجلين أبدا أى كلمة طيبة عن الطقس، أو التربة، أو الحكومة. لكنها بدأت

تتعلم اللغة، لغة الفلاحين، ولاحظت أنه رغم كل شكاوى ريتشارد وستيفن، لم يفلسا، ولم يصبحا شديدى الثراء أيضا. كانت الأمور تسير الهوينى، ويعملان بارتياح.

كان محصولهما من الذرة الصفراء. تتكون مزرعتهما من ثلاثة آلاف هكتار على الحافات، باتجاه جرف زمبابوى: أرض ريفية عالية، جافة، تذروها الرياح، باردة متربة فى الشتاء، لكنها كانت الآن، فى الشهور الرطبة، مشبّعة بالبخار مع الحرارة التى ارتفعت وسط موجات ناعمة رطبة من خضرة أميال من أوراق النبات. كانت الأرض جميلة، مع السماء فى أيام صحو مثل قاعات هواء زرقاء ورائعة، بينما يطوى الأخضر اللامع ويتجوّف مع ريف تحته، وتستقر الجبال حادة وعارية على بعد عشرين ميلا، وراء الأنهار. جعلت السماء عينيها تؤلمانها، فلم تكن معتادة عليها. لا ينظر الفرد كثيرا إلى السماء فى المدينة. لذا، حين قال ريتشارد ذلك المساء "تبعث الحكومة تحذيرات بأن الجراد متوقع أن يهبط من أراضى مولدة فى أعلى الشمال"، دفعتها غريزتها إلى تفحّص الأشجار. حشرات، حشود منها – أمر فظيع! لكن ريتشارد والعجوز رفعا عيونهما، وكانا يتطلعان إلى أعلى أقرب قمّة جبل. قال أحدهما:

– لم يكن لدينا جراد خلال سبع سنوات.

قال الآخر:

– إنها تأتى فى دورات، الجراد يفعل ذلك.

ثم استطرد:

– هكذا يضيع محصولنا لهذا الموسم!

لكنهما استمرا فى عمل المزرعة كالمعتاد تماما، حتى جاء يوم، حين كانوا يصعدون الطريق إلى منزل الأسرة فى استراحة الظهيرة، توقف ستيفن العجوز، رفع أصبعه، وأشار صائحا:

– انظروا، انظروا! إنها هناك!

سمعته مارجريت، وخرجت للحاق بهم، ناظرة إلى التلال. خرج الخدم من المطبخ. وقفوا جميعا وحدّقوا. كان هناك شريط هواء بلون الصدأ فوق مستويات الجبل الصخرية. الجراد. ها قد جاء.

على الفور صرخ ريتشارد فى صبى الطاهى. صاح العجوز ستيفن فى صبى البيت. جرى صبى البيت، كى يضرب شفرة المحراث الصدئة بفرع شجرة. كان ذلك فعلا معتادا لاستدعاء العمال فى لحظات الأزمة. انطلق صبى البيت إلى المخزن كى يجمع علب صفيح، أو أى قطع قديمة من المعدن. كانت المزرعة تدقّ الجرس بصخب، وجاء العمال يتدفقون من مجمع السكن، وهم يشيرون إلى التلال، ويتصايحون بإثارة. وسرعان ما جاءوا جميعا إلى المنزل، وراح ريتشارد والعجوز يعطونهم أوامر: أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا!

ركضوا خارجا ثانية، وكان معهم الرجلان الأبيضان، وخلال بضعة دقائق أمكن لمارجريت أن ترى دخّان النيران يرتفع من كافة أنحاء الأراضى الزراعية. عندما جاءت تحذيرات الحكومة، أعدّت أكوام من أخشاب ونجيل فى كلّ حقل مزروع. كانت هناك سبع قطع عارية من ترب مزروعة، حيث بدأت كيزان الذرة الجديدة فى البزوغ،

صانعة طبقة رقيقة من أخضر لامع فوق أحمر غامق غنى، وحول كل قطعة تحلقت سحب كثيفة من دخان. كان الرجال يرمون أوراق أشجار رطبة فى النيران كى يتأجج الدخان حريفا وأسود. راقبت مارجريت التلال. كانت هناك الآن غيمة طويلة منخفضة تتقدّم، بلون الصدأ مازالت، تنتفخ إلى الأمام والخارج. بينما كانت تنظر، كان الهاتف يرنّ، من الجيران، ليقولوا أسرعوا، أسرعوا، ها قد جاء الجراد! كان سميث العجوز قد حصد محصوله على الأرض، أسرع واجعل نيرانك تبدأ! لأن كل مزارع يتمنى، بالطبع، أن يتجاوز الجراد مزرعته، ويستمرّ إلى التالية، كان من العدل أن يحذر الآخرين فقط، يجب أن يلعب الفرد بشرف. كان الدخّان يرتفع من عدد ضخم من النيران، فى كل مكان، على امتداد خمسين ميلا من الريف. ردّت مارجريت علي مكالمات الهاتف، وبينها وقفت تراقب الجراد. كان الهواء يظلم إظلاما غريبا، لأنّ الشمس كانت تشتعل. حين يصبح الهواء مثقلا بالدخان، كان مثل شرّر نار مرج ذى أشجار، وينحدر ضوء الشمس مشوّها برتقاليا حارا سميكا. كان الجوّ ثقيل الوطأة وحبلى أيضا بعاصفة. وبينما يأتى الجراد سريعا، أظلمت الآن نصف السماء، وراء أحجبة الجبهة المحمرة، التى كانت حرسا لمقدمة الحشد، الحشد الرئيسى، الذى ظهر فى غيوم سوداء كثيفة، مرتفعا إلى الشمس نفسها تقريبا.

كانت مارجريت تتساءل عمّا يمكن أن تفعله للمساعدة. لم تكن تعرف. ثم جاء ستيفن العجوز من الأراضى، قائلا:

– لقد انتهينا يا مارجريت، انتهينا! يمكن أن يأكل هذا الجراد الشحاذ كلّ ورقة شجر ويصل إلى المزرعة فى نصف ساعة! لكننا ما زلنا فى بكور العصر فقط. إذا استطعنا عمل دخّان كافى، وعملنا ضوضاء كافية، حتى تغيب الشمس، فربما يستقرّ الجراد فى مكان آخر.

ثم استطرد:

– دعى الغلاية تغلى. إنّ هذا عمل مثير للعطش.

هكذا ذهبت مارجريت إلى المطبخ، أذكت النار، وغلت الماء. كان يمكنها الآن أن تسمع ضرب وحركات الجراد المفاجئة على صفيح سطح المطبخ، أو خدش انزلاقه مثلما ينزلق أحد أسفل منحدر من الصفيح. هنا كانت بشائره. جاءت الضربات والحركات المفاجئة والطرقات على مئات من صفائح البنزين وقطع المعدن من أدنى الأراضى وما بعدها. انتظر ستيفن نافذ الصبر، بينما ملأت مارجريت صفيحة بنزين بالشاى – ساخنا، حلوا، برتقالى اللون – وأخرى بالماء. أخبرها، فى نفس الوقت، كيف أنه منذ عشرين عاما مضت، جرى التهام محصوله، وتسببت جيوش الجراد فى إفلاسه. وبعد ذلك، حمل صفيحتى البترول، واحدة فى كل يدّ، وهو مازال يتكلم، ممسكا إياهما بواسطة قطع خشبية موضوعة بحيث تشكل زاوية على الغطاءين، وهرول إلى أسفل الطريق، نحو العمال العطشى.

حتى الآن، كان الجراد يتساقط مثل وابل برد على سقف المطبخ.

بدا مثل عاصفة عنيفة. تطلعت مارجريت إلى الخارج، ورأت الهواء مظلما بشبكة من الحشرات، فأطبقت أسنانها، واندفعت إليه. ما يفعله الرجال يمكن أن تفعله. فوق رأسها، كان الهواء سميكا بالجراد المنتشر فى كل مكان. كان الجراد يتخبط بها، فدفعته بعيدا – مخلوقات بنية حمراء، تنظر إليها بعيون العجائز الخرزية، بينما تتعلق بها بسيقانها الحادة المسننة. حبست أنفاسها باشمئزاز، وجرت عبر الباب إلى البيت مرة أخرى. بدا الجراد هناك كما لو أنه أعظم من عاصفة عنيفة. كان السقف الحديدى يهتزّ، وصخب الحديد المضروب من الأراضى مثل الرعد. عندما نظرت إلى الخارج، تجلت الأشجار غريبة، ما تزال تغصّ بحشرات، تثقل أغصانها إلى الأرض. بدت الأرض كما لو أنها تتحرك، بجراد زاحف فى كل مكان. لم يمكنها أن ترى الأراضى على الإطلاق، كان الحشد شديد الكثافة. بدا الأمر باتجاه الجبال، مثل النظر إلى مطر عات، حتى وهى تراقب، كانت الشمس ملطخة بدفق جديد من الحشرات. كان نصف ليل، ظلمة شريرة. ثم جاء تكسّر حاد من شجيرة انفصل فرع منها. ثم آخر. انحنت شجرة إلى أسفل المنحدر ببطء، وحطّت بعنف على الأرض. جاء رجل يجرى، عبر دفق الحشرات. كان مطلوبا شاى أكثر، ماء أكثر. أمدّته مارجريت بالمطلوب. حافظت على النيران متقدة، وملأت الصفائح بالسائل. ثم كانت الساعة الرابعة بعد الظهر، واستمرّ الجراد ينصب فوق الرؤوس لمدة ساعتين.

وصل ستيفن العجوز ثانية على قدميه – طاحنا جرادا تحتهما

فى كل خطوة، والجراد يتعلق فوقه كلية – لاعنا، وهو يتوعّد، ضاربا الهواء بقبعته القديمة. توقف سريعا عند المدخل، دفع بعجالة الحشرات المتعلقة به، ورماها بعيدا، وهبط بعدها إلى غرفة الجلوس الخالية من الجراد، قائلا:

– انتهت كل المحاصيل. لم يبق شىء.

لكن الأجراس كانت مازالت تدق، والرجال يصيحون، فتساءلت مارجريت:

– لماذا تستمر الأجراس، إذن؟

– لم يستقرّ الحشد الرئيسى منها بعد. إنّها مثقلة بالبيض، تبحث عن مكان كى تستقر وتضع البيض. إذا أمكننا أن نوقف الحشد الرئيسى من الاستقرار فى مزرعتنا، يكون ذلك كلّ شىء. إذا أتيحت له الفرصة لوضع بيضه، سيضيع كل شىء مأكولا، وتصبح الأرض مسطحا ممتلئا بالنطاطات لاحقا.

التقط جرادة ضالة من قميصه، وقسمها بظفر إبهامه، كان داخلها محشوا بالبيض:

– تخيّلى ذلك متكاثرا بالملايين. ألم ترين أبدا حشد النطاطين فى مسيرها؟ لا؟ حسنا، أنت محظوظة.

فكرت مارجريت أن حشدا بالغا هو شىء سيّء بما فيه الكفاية. كان الضوء على الأرض فى الخارج شاحبا، مصفرا، رقيقا، مظلما مع ظلّ يتحرك. تكثفت غيوم الحشرات المتحركة وأضاءت، مثل مطر عاتٍ.

قال العجوز ستيفن:

– إنّ الريح من تدفعه من خلفه.تساءلت مارجريت بتخوّف:

– أهو شيء شديد السوء؟

أجاب العجوز بتأكيد:

– لقد انتهينا. هذا الحشد ينهى الأمر، لكن ما أن يبدأ، فإنه يتقاطر من الشمال واحدة وراء أخرى. ثم توجد النطاطات. قد يستمر الأمر لمدة ثلاث أو أربع سنوات.

جلست مارجريت عاجزة، وفكّرت، حسنا، إذا كانت هذه هى النهاية، فهى النهاية. والآن، ثم ماذا؟ سيكون علينا نحن الثلاثة أن نعود ثانية إلى المدينة. لكن عندئذ، ألقت نظرة سريعة على ستيفن، العجوز، الذى قام بالفلاحة أربعين سنة فى هذا القطر، وأفلس مرتين من قبل، وهى لا تعرف شيئا يجعله يذهب ويصبح كاتبا فى المدينة. آلمها قلبها من أجله. بدا متعبا جدا، تعمقت خطوط قلق من أنفه إلى فمه. يا للعجوز المسكين. نزع جرادة أدخلت نفسها بشكل ما فى جيبه، وأمسكها فى الهواء من إحدى سيقانها، قائلا للجرادة بشكل فكه:

– إن لديك قوّة نابضة صلبة فى تلك السيقان.

ثم، رغم أنه حارب الجراد خلال الثلاث ساعات المنقضية، ساحقا الجراد، صارخا فيه، كانسا إيّاه فى تلال عظيمة إلى النيران لإحراقه، فقد حمل هذه الجرادة على الرغم من ذلك، إلى الباب، ورماها بعناية إلى الخارج لتنضم إلى رفيقاتها، كما لو أنها بالأحرى

لن يمكنها أن تؤذى شعرة من رأسه. أراح ذلك مارجريت، كليّة فورا، فشعرت بابتهاج لاعقلانى. تذكّرت أنها كانت المرة الأولى فى الثلاث سنوات الماضية، التى أعلن فيها الرجال خرابهم النهائى، الذى لا سبيل إلى معالجته. عندئذ قال ستيفن:

– احضرى لى شرابا يا فتاة.

وضعت قنينة ويسكى إلى جواره.

فكّرت مارجريت فى ذات الوقت، أنّ زوجها كان خارجا فى عاصفة الحشرات الراجمة، ضاربا الجرس، مغذيا النيران بأوراق الشجر، بينما الجراد معلق فوقه جميعا. ارتجفت، سائلة ستيفن:

– كيف يحتمل أن يجعلها تلمسه؟

نظر إليها باستنكار. بدت متواضعة بشكل ملائم تماما مثلما كانت عندما أحضرها ريتشارد للمزرعة بعد زواجهما، وألقى ستيفن أول نظرة فاحصة على ابنة المدينة ذات الشعر الذاتى المتموج الذهبى، والأظافر الحمراء المدببة. كانت الآن زوجة فلاح لائقة، بحذاء معقول، وتنوره صلبة. بل ربّما تدع الجراد يستقر عليها، بمرور الوقت.

الساعة الخامسة تماما، وستغرب الشمس خلال ساعة. عندئذ يستقر الحشد. كان سميكا مثل امتداد مستمر فوق الرؤوس. كانت الأشجار متشعثة بركام من اللون البنى المتلألئ.

بدأت مارجريت تبكى. كانت شديدة اليأس كلية. إذا لم يكن

موسما سيئا، يأتى الجراد، وإذا لم يكن الجراد، يأتى جيش ديدان أو نيران مرج. دائما هناك شىء ما. كان حفيف جيوش الجراد مثل غابة كبيرة فى عاصفة. كانت الأرض مختفية فى مدّ أملس أسمر دوّار، كان الأمر مثل غرق فى الجراد، مغمورا بفيضان بنى مقرف. بدا كما لو أن السطح قد يغوص تحت ثقل الجراد، وكما لو أن الباب قد يستسلم تحت ضغطه، وتلك الغرف ممتلئة به.

بدأت الدنيا تصبح حالكة الظلمة. تطلعت مارجريت من خلال النافذة إلى السماء. كان الهواء أرقّ، وبرزت فجوات زرقاء وسط السحب الحالكة المتحرّكة. كانت الفراغات زرقاء باردة ورقيقة. ينبغى أن تغرب الشمس. رأت خلال ضباب الحشرات أشخاصا تقترب، أولها العجوز ستيفن، سائرا بجسارته المعهودة، ثم زوجها، يجرّ نفسه منهكا بالتعب، ووراءهما الخدم. كانوا جميعا يزحفون مع الحشرات. توقف صوت الأجراس. ولم تسمع مارجريت شيئا، سوى الحفيف المستمر لجمع أجنحة غفير.

صفع الرجلان الحشرات بعيدا، ودخلا.

قال ريتشارد، مقبلا زوجته على الوجنة:

– حسنا، انتهى الحشد الرئيسى.

– من أجل خاطر الإله!

قالت مارجريت بغضب، وهى ما تزال نصف باكية، ثم استطردت:

– إنّ ما هنا سيّء بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟

لأنه على الرغم من أن هواء المساء لم يعد أسود سميكا، بل رقيقا وأزرق صافيا، مع نمط حشرات تئزّ بهذا الشكل، وأنه عبر كل ذلك، كان أىّ شىء آخر – أشجار، مبانى، شجيرات، وأرض – قد اختفى تحت الجماعات البنية المتحركة.

قال ستيفن:

– إذا لم تمطر فى الليل، وأبقته هنا..

ثم استطرد:

– إذا لم تمطر، وتثقله بالماء، سينطلق فى الصباح عند شروق الشمس.

قال ريتشارد:

– نحن متجهين إلى أن ننال بعض النطاطات. لكن ليس الحشد الرئيسى. ذلك شىء.

أيقظت مارجريت نفسها، مسحت عينيها، وتظاهرت بأنها لم تكن تبكى، وجلبت لهم بعض العشاء، لأن الخدم كانوا مجهدين أيضا جدا، ولا يستطيعون الحركة. أرسلتهم إلى المجمّع كى يرتاحوا.

قدّمت الطعام والشراب للعشاء، وجلست تستمع. سمعت أنه لم يترك هناك نبات ذرة صفراء واحد، مجرد واحد. ينبغى أن يخرجوا مكائن الزراعة لحظة ذهاب الجراد. يجب أن يبدأوا كل شىء من جديد.

تساءلت مارجريت، ما فائدة ذلك، إذا ما كانت كل المزرعة

ستغطى بالنطاطات؟ لكنها أنصتت عندما ناقشوا كتيب الحكومة الجديد، الذى يوضّح كيف تهزم النطاطات. يجب أن يخرج الرجال طوال الوقت، خافرين المزرعة، لمراقبة أىّ حركة على النجيل. حين يجدون رقعة نطاطات – أشياء صغيرة سوداء حيّة مثل الصراصير – عندئذ تحفر خنادق حول الرقعة أو ترشّ بسمّ من مضخات مجهّزة من قبل الحكومة. تريد الحكومة من كلّ فلاح أن يتعاون فى خطة عالمية لإزالة هذا الطاعون إلى الأبد. يجب أن تهاجم الجراد عند المنبع، النطاطات باختصار. كان الرجال يتحدثون كما لو كانوا يخططون لحرب، وأنصتت مارجريت مندهشة.

فى الليل، كان هدوء، دون أيّة إشارة للجيوش التى استقرّت بالخارج، ماعدا صوت انكسار غصن أحيانا، أو صوت انهيار شجرة.

نامت مارجريت بشكل سيّء فى الفراش بجانب ريتشارد، الذى كان نائما كالموتى. استيقظت فى الصباح على إشراقة شمس صفراء تسقط على الفراش. شروق ساطع، مع لطخ ظلّ عرضية تتحرك فوقه. ذهبت إلى النافذة. كان ستيفن العجوز قد سبقها. وقف هناك، خارجا، محدّقا لأسفل إلى الأجمة. وحدّقت هى أيضا، مندهشة. مسلوبة اللب كثيرا ضدّ رغبتها، لأنّه بدا كما لو أنّ كل شجرة، كلّ أجمة، كلّ الأرض، قد اشتعلت بنيران شاحبة. كان الجراد يهوّى بأجنحته كى يحرّرها من ندى الليل. كان هناك وميض من ضوء ذهبى مشوبا بحمرة فى كلّ مكان.

خرجت للانضمام إلى العجوز، وهى تخطو بحذر بين الحشرات. وقف الاثنان، وراقبا. كانت السماء فوق الرؤوس زرقاء، زرقاء صافية.

قال ستيفن العجوز برضا:

– جميل!

فكّرت مارجريت، حسنا، ربّما نكون قد دمّرنا، لكن لم ير أىّ شخص جيش الجراد، وهو يهوّى بأجنحته فى الفجر.

بزغت لطخة حمراء باهتة فى السماء على مسافة عبر المنحدرات. تكثفت وانتشرت.

قال ستيفن العجوز:

– ها هو يذهب. ها هو الجيش الرئيسى يذهب بعيدا إلى الجنوب.

والآن، من الأشجار، من كل الأرض من حولهم، كان الجراد يحرّك أجنحته. كان مثل طائرة صغيرة تناور للإقلاع، بينما تحاول أن ترى ما إذا كانت أجنحتها جافة بما فيه الكفاية. وسرعان ما انطلقت. كان بخار بنى محمرّ يبتعد عبر أميال من الأجمة، مبتعدا عن الأراضى الزراعية، وأظلم نور الشمس مرّة أخرى.

وبينما ارتفعت الفروع المتخثرة، بعد أن خفّ الثقل عليها، لم يكن هناك باقيا سوى أعمدة الفروع الفقرية السوداء وجذوع الشجر. لا خضرة – لا شىء. راقبوا طوال الصباح، ثلاثتهم. كان ريتشارد قد نهض أخيرا. بدا المشهد مثل قشرة بنيّة خفيفة، انكسرت، وذابت،

مرتفعة فى طيرانها كى تلحق بالجيش الرئيسى. أصبحت الآن لطخة بنيّة محمرة فى السماء الجنوبية. كانت الأراضى، التى سبق أن تغطّت بطبقة خضراء لنباتات ذرة جديدة رقيقة، مقفرة عارية، منظرا طبيعيا مخرّبا. لا خضرة، لا خضرة فى أىّ مكان.

عند منتصف النهار، ذهبت الغيمة المحمرة. فقط تخبّطت جرادة عرضية إلى أسفل. استقرت جثث الجراد وجرحاه على الأرض. كان العمّال الأفارقة يكنسونه بفروع الشجر، ويجمعونه فى صفائح.

تساءل ستيفن العجوز:

– هل أكلت جرادا مجففا ذات مرّة، يا مارجريت؟

ثم استطرد:

– حين أفلست منذ عشرين عاما، عشت على الذرة والجراد المجفف لمدّة ثلاثة أشهر. لم يكن أمرا سيئا على الإطلاق. إنه على الأصحّ مثل سمك مدخّن، إذا حاولت أن تفكّرى بالأمر.

لكن مارجريت فضّلت ألاّ تفكّر بالأمر.

بعد وجبة الظهيرة، خرج الرجال إلى الأراضى. كان ينبغى أن يعاد زراعة كلّ شىء. مع قليل من الحظ، ربّما لن يأتى حشد آخر مسافرا فقط بهذا الشكل. لكنهم تمنوا أن تمطر سريعا، ليبزغ بعض عشب جديد، وإلاّ ستموت الماشية، فلم تعد هناك ورقة عشب باقية فى المزرعة. أمّا بالنسبة لمارجريت، فكانت تحاول أن تعتاد على فكرة ظهور الجراد كل ثلاث أو أربع سنوات. سيغدو الجراد مثل الطقس من الآن فصاعدا مؤذنا دائما بوشك الحدوث. أحسّت أنها مثل من

نجا من حرب، وإذا لم يخرّب هذا الريف المدمر والمشوّه، حسنا، ماذا خرّب إذن؟

لكن الرجال تناولوا عشاءهم بشهية طيبة.

– كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ.

كان ذلك ما قالوه..

– كان يمكن أن يكون أسوأ بكثير.

فى المعرض الوطنى

كانت نيّتى بسيطة. بقيت لدىّ ساعة حرّة. وبدلا من إنفاقها متنقلا من لوحة إلى أخرى حتى ينتهى الوقت، فكّرت أن أجد لوحة كبيرة بما فيه الكفاية، ترى جيّدا وأنا جالس أنظر إليها بهدوء من منتصف الغرفة. مجرد لوحة واحدة، بذاتها. ينبغى أن تكون معروفة فعلا لى. وها هى هناك لوحة الفنان "ستابس" (١)، الحصان الكستنائى، ذلك الوحش الرائع، ممثل كلّ القوة والفعالية، الذى يمكننى أن أراه جيدا من المقاعد المركزية. لم يكن هناك كثير من الزوار فى ذلك العصر. كانوا أقلّ ممن يوجدون عادة فى قسم الانطباعيين المجاور. ربّما كنت وحدى تقريبا مع الحصان. ثم جلس رجل على الجانب الآخر بجوار ذراع المقعد، ومال إلى الأمام، متكئا بمرفقيه على ركبتيه، ناظرا بحدّة إلى الحصان. كان فى الستين من

عمره تقريبا، حسن الهندام، حسن المظهر، مستغرقا فى تأملاته. جلس رجل ثانى إلى جوار الأول، الذى رفع يده، فارضا الصمت. ثم غمغم:

– ها هو هناك، جميل، أليس كذلك؟

كان الرجل الثانى شابا أصغر من الأول بشكل كبير. ابن؟ أخ أصغر؟ تلميذ بالتأكيد، لأنّ الأول سرعان ما بدأ يتكلم مخبرا إيّاه عن الرسام"ستابس"، عن الخيول التى رسمها. كان يتكلم بصوت منخفض، لم يرد أن يبدو كدليل رسمى، رغم أن الناس من وراء المقعد تحوّلوا لينصتوا، وحاولت أن أنصت أنا أيضا، لكن لم تصلنى سوى بضعة كلمات فقط. أنصت الرجل الثانى، وكان ينظر عابسا عند مقاطعة وجهة نظره، بينما كان الناس يمرّون بيننا وبين الحصان. لكنه بدا قلقا، وسرعان ما كان ينظر إلى ساعته، عندئذ ابتسم الرجل الأول، وقال:

– تعال، يمكنك أن تستغنى عن بضع دقائق.

جلس، استمر الشاب الثانى جالسا لوهلة، ثم قفز واقفا، مبتسما، معتذرا، حزينا نوعا ما مثل تلميذ وبّخ من قبل معلم. رفع الرجل الأول يده فجأة، كبادرة استسلام ساخرة، فنطق الشاب بكلمات لاذعة:

– لا يمكنك أن تصنع منّى شخصا طيّعا. ما أزال أردد ذلك على مسامعك.

تحول المشهد خلال لحظة إلى شىء قبيح. انكشف الشاب الوسيم

الصغير بما قال، وكيف قاله، وبدا الآن على وشك الاعتذار إنقاذا للموقف، لكنّ الرجل الأول أدار له ظهره. أسرع الأصغر إلى المخرج الذى يؤدى إلى قسم القرن الثامن عشر الفرنسى، رغم أنه من غير المحتمل أنه عنى أن يكون هناك. استدار، رسم بيديه تموّجا طائشا إلى حدما كما لو كان يقول "أوه، دعنا نرتد برفق ونتصالح". لكن ناصحه مازال لا ينظر إليه، بل كان ينظر عبرى إلى نهاية صالة المعرض. فجأة، أصبحت الغرفة صاخبة ومفعمة بالحيويّة. تلاشى هدوءها بمقدم بعض تلميذات المدارس اللاتى تميّزن ببعض أوشحة رقيقة صغيرة مرتداة هكذا فقط، معبّرة عن شخصية فردية، مع زىّ رسمى من جينز أسود وستر سوداء. كنّ فرنسيات، عشرة أو ما قارب ذلك، مجموعة واعية بكونها واحدا، وقفن معا فقط داخل أحد الأبواب الكبيرة، قرب لوحة "موظف كاتدرائية سالزبرى". لم يكنّ ينظرن إليها، أو إلى أى من اللوحات الأخرى، بل كن يتحدّثن بصوت عالٍ ويضحكن، متوقعات انتباها كنّ يتحصّلن عليه. كان الرجل إلى جانبى يتكئ فى الحقيقة للأمام، واضعا مرفقيه على ركبتيه، محدّقا إليهن. لم ينظر إلى المخرج، حيث اختفى صديقه. ما كان جذّابا أكثر، هنّ أولئك البنات، المتألقات الساطعات، كما لو من حمّى، مستثارات ربّما من الرحلة، لكن الأغلب كان بسبب من وجودهن هنا كلّ مع الأخرى معا فى عرض. إذا ما نظرت إلى أىّ أنثى مراقبا، ستتذكر فورا المنافسة بين مجموعة من البنات. نحن نعرف أن هذا القطيع من بنات حسنات الملبس، كان مليئا بمتنافسات، أفضل

صديقات، خيانات، عاطفة جيّاشة. برزت من بينهن بنت واحدة. كانت "أكثر فرنسية" بأسلوبها، مع وجه صغير صريح وهى تقدّم نفسها، صفقة جديرة بالإعجاب، بالأسلوب الفرنسى مع بناتها. لابد أنها ابتسمت مائة مرة عند إخبارها بأنها كانت مثل أودرى هيبورن. حسنا، كانت بنتا، وأىّ بنت. كانت هى البنت القائدة لهذه المجموعة، حتى لو لم تكن رسميا هى البنت الرئيسة أو المراقبة. كانت أصليّة، "الورقة الرابحة"، البراعة، بل حتى المهرّجة.

ألقى الرجل بجانبى نظرة، كى يرى إذا ما كان صديقه الجانح على مرأي البصر، لكن الناتج لم يكن طيّبا، لأن البنات استغرقنه. كان الجميع ينظرون إليهن. كيف لا نفعل؟ كنّ كثيرات الحيوية، كثيرات النشاط، مثل مشعل صغير من شرارات لامعة. كنّ الآن يحاولن أن يفزن بالحظوة لدينا، صانعات من بعض خلافات خاصة مسرحية خفيفة، نكتة ربّما، لكن الأصوات كانت ترتفع وتقف البنت الرئيسة وسطهن، جاهزة للفصل فى أىّ نزال، أو لتصدر حكما. كان الرجل إلى جوارى يحدّق فيها بشدة. نعم، كانت حقيقة شيئا، هذه القطعة الصغيرة من ملكة جمال من فرنسا، بأناقتها، بمشابك قاتمة لشعرها المقصوص كى ينعقف، بعينيها السوداويين، وحاجبين مائلين قليلا. كانت على الإجمال حادة ومتحدّية، مثل هريرة أنثى ناتئة قبل أن تصبح قطة جدّية، بالحجم والصلاحية. وقفت هناك، بينما التفّت من حولها. تثاءبت. حدّق الرجل، وبدا أنه يحبس أنفاسه. وعندئذ، دون النظر إليهن، دون أن تقول لهن شيئا، انفصلت عنهن، جاءت

نحونا، أو بالأحرى، نحو الرجل، وجلست قريبا منه، على الجانب الآخر منى. لم تنظر إليه. لم يتحرك. انزلقت للأمام على المقعد الزلق، أوقفت نفسها، وبعد ذلك إذا جاز التعبير، غاصت، يداها بين قدميها. وشبكت كاحليها الجميلين. انتصبت ثانية، وتثاءبت، ونظرت إلى الحصان العظيم البادى للعيان هناك. انفتح فمها، ربّما دهشة، ثم تحوّلت إلى التثاؤب مرّة أخرى. وسقطت نائمة. تماما هكذا. نامت.

لاحظت البنات انصرافها بالكاد. كنّ يواصلن خلافهن. كان الرجل إلى جانبى ساكنا تماما. أظهرت لمحة سريعة إليه كيف أدار رأسه بحذر للنظر إلى الجمال النائم قريبا جدّا منه. بدا وجهه كمن صفع. كانت نائمة. كانت وقاحة موجهة مبهجة منها، كما لو كانت حقيقة وحدها. لكنها لم تكن، كانت قد انسحبت من مجموعة بنات المدارس تلك، وبسبب ذلك حدّق إليها، مركزا بصره عليها، بقوة انتباه مطلقة. دون أن تنظر إليه ولو مرّة.

– يا الله!

علق بصوت مرتفع، دون أن يقصد. ثم منحنى عندئذ التفاتة، وضحك. يمكن أن توضع تلك الضحكة فى كلمات، هكذا "نعم، أنا، أيضا، كان لدىّ تلك الحيوية المستحيلة، التى لا تقاوم..أين ذهب كلّ ذلك.. نحن لا نفكر بذلك عندما نكون فى ذلك العمر.. الزمن يفعل فعله دون أى اهتمام بنا.. نعم، الزمن"، وما شابه ذلك. وأراهن أنّ كلمات مثل تلك، قد مرّت عندئذ فقط، بعقول عديد من الناس فى ذلك المعرض.

نامت البنت نوما خفيفا.

ألمح إلىّ، أو ربّما لنفسه:

– إنّها تشبه بنتا عشقتها ذات مرة. لكننى كنت مجرد ولد.

تساءلت متجاسرا:

– وهى؟

– كانت فى السادسة عشرة، مثل هذه، الموجودة هنا

– وأنت؟

– كنت فى الثانية عشرة.

– آهـ، ستكون إذن عاشقة لشاب فى العشرين، وستكون بالنسبة لها مجرّد طفل صغير.

نظر إلىّ الآن بوضوح، مفكّرا فى، ليقرر إذا ما كنت جديرا بالاستمرار.

قال، معترفا بأكثر كثيرا من مجرّد المعارضة:

– صحيح تماما. لكن ألم يحدث لك فى أغلب الأحيان أن تتناقض عواطفنا الكبيرة وتنتهى، وتصبح محددة بنوع من كليشيه سخيف؟

– حسنا، نعم.

– نعم. لم تبادلنى العاطفة، بطبيعة الحال. لكننى كنت مفيدا، كما سترى. كنت أبدو تماما كفتى، حسن النمو، كما يقولون، وجيّدا بما فهى الكفاية كى أتفهّم.

حدّقنا، الآن، كلانا، إلى البنت، التى لم تتحرك أيّة نأمة منها، بينما كنّا نتحدث عنها.

– أخذتها طوال ذلك الصيف عدة مرات إلى فيلم "الرجل الثالث"(٢).. نعم، بالضبط هكذا، دون أن أحصل على أىّ شىء منها. استغرق الأمر منّى سنوات، عندما رأيت الفيلم ثانية بعد ذلك بسنوات، كنت قد تحررت تماما. معها، لا أعتقد أننى رأيت أكثر من مجرد صورتها الجانبية الصغيرة.

وأشار باسما إلى ذلك الوجه المبهج، وهو يستطرد:

– اعتقد أنّها كانت مفتتنة بأورسون وايلز. وكنت كذلك بالتأكيد، لكن هل تتذكر مشهدا من الفيلم تمشّت فيه البنت فى النهاية عبر ذلك الدرب الطويل نحو المعجب بها، خطوة وراء أخرى، وهو ينتظرها، ثم تجاوزته، شامخة بأنفها فى الهواء؟ حسنا. لقد كانت تتدرّب عليه، هل ترى؟ أرادت أن تعامل فتاها بذلك الشكل. كان اسمه اريك، يبدو أننى أتذكّر. نعم، لقد مشت متجاوزة إيّاه تماما، تماما مثل البنت فى الفيلم، بينما هو يتمزق غضبا غيورا.

– وهل حدث ذلك؟

– من يدرى؟ لقد انقضى ذلك الصيف ببطء، بنفس الأسلوب الذى انقضت به تلك الأصياف، ولاحقا تزوّجت شخصا ما. وهو ما فعلته أنا أيضا.

ضحك ثانية. كانت ضحكة تلذذ معدومة الضمير، ونظر إلىّ كى أشاركه فيها.

– لكن إذا كانت قد أثلجت فى العام الماضى .. فها هنّ هنا.

– لا، لا أعتقد ذلك. أنا غير مولع بالحنين.

تساءلت:

– لكن؟

– لكنها جاءت مباشرة – جاءت مباشرة من الماضى. وأنا أشعر بذلك – حسنا، دعنى أختار كلماتى، فأنا لا أريد المبالغة. نعم، قد أقول أنّ هناك سكينا مغروسا فى قلبى. هل تضحك؟

– ليس حقيقة، لا.

– لا، ينبغى ألاّ تفعل. إنّ عواطف الصبية الصغار قويّة تماما كعواطف البالغين.

– لكننا لا نريد أن نعترف بذلك؟

– تماما. إننى أتذكّر أدقّ تفاصيل ذلك الصيف.

كان يفكّر بذلك الصيف، ولم يفكّر إطلاقا بها، بتلك التى كان تتنفس شهيقا وزفيرا هناك، قرب مرفقه.

وكنت أظنّ أنّه لم يوضح أن قلبه ربّما يكون قد انزعج قليلا فى وقت سابق من ذلك المشهد الصغير المزعج. ثم استيقظت البنت. ركّزت عينيها على الحصان العظيم الرائع، قريبا جدا، صاعدة ببصرها إلى هناك على قماش اللوحة الكنفاة الذهبى، على ساقيه الخلفيتين. لم يكشف وجهها عمّا كانت تفكر فيه.

ماذا يمكنها أن تكون فاعلة مع ذلك الحصان المثير جدا، بعينه الساخطة؟ هل تفكر "هل هذا حصان سيرك؟ الخيول لا تقف عادة على ساقيها الخلفيتين". وفيما يفكر هو.. الحصان؟ بالتأكيد "يا له من عالم سخيف. أنا حصان جدّى، لماذا ينبغى أن يرسمنى واقفا

هنا وساقاى الأماميتان فى الهواء؟" يمكننا أن نكون متأكدين من شىء واحد فقط، هو أنّ هذا الحصان لم يعرف، أنّه كان بلون النحاس اللامع، ولذلك كان شديد الجمال.

لوّحت البنت للمجموعة، فانطلقن يوبّخنها للابتعاد عنهنّ والنوم هناك. كان هناك شيئا مسرحيا صاخبا حول تلك التوبيخات، وقصد منها أن تكون مسموعة. الآن، يجب أن تعيد تأكيد حقوقها عليهن. نهضت وذهبت لتقف أمام الحصان، رافعة ذراعها فجأة:

– انظروا.

ثم صاحت:

– حصان أحمر .. – وبالفرنسية – "هذا! حصان أحمر!"

نظرن جميعا إلى الحصان. كان لزاما أن يحدث شىء ما. بدأت تضحك بشكل مسرحى بروح ممتلئة حماسة ونشاطا وسط حيويتهن الوافرة. توجّب على البنات أن يضحكن، ينبغى عليهن، فارتفع ابتهاج، فيهن مثل فقاعات فى سائل، يجب أن يجد متنفسا. وقفن يضحكن على الحصان، منقادات للبنت، ونهض الرجل الخبير فى الفنان "استابس"، ووقف أمام الحصان، كما لو كان مدافعا عنه. لكن البنات لم تكن معنيات حقا بالحصان، وابتعدن عنه، باتجاه قسم القرن الثامن عشر الفرنسى. وقف الرجل مجرّدا هناك، محدّقا وراءهن. ثم رجعت البنت ثانية، ليس إليه، أو أنّ هذا لم يبدُ هو السبب، فقد وقفت بجانبه، وحدّقت إلى الحصان، الذى لابد أنّها أحسّت بأنها أهانته بضحكها. على أيّة حال، لم تتصرف هى والبنات

بشكل طيّب حقا. لا ينبغى للبنات حسنات التربية أن يسخرن ويضحكن فى معرض عام.

وقف محدّقا، نعم حدّق، ولم يكن ذلك لطيفا أيضا. انطلق باتجاه المخرج عائدا إلى قسم الانطباعيين. رجعت مجموعتها ثانية إليها. وقفن ثانية معا، مختلفات. يمكننى الآن أن أسمع عمّا كان يدور الأمر كله. كنّ متعبات. يردن إيجاد مقهى يجلسن عليه، ويشربن شيئا من القهوة. لكنهن عندئذ، لن يرون بقية اللوحات فى هذا المعرض المشهور عالميا، وكنّ قد خصصن هذا المعرض، مشتاقين فقط لرؤية التحف العظيمة، التى ربّما لن يرونها ثانية.

كان يمكننى أن أذهب بشكل أو آخر. عندئذ. قررت البنت، بنته، نيابة عنهنّ:

– تعالوا. يجب أن نتناول قهوة. حالا. وإلاّ ببساطة سأموت.

كان الرجل واقفا عند المدخل، أو المخرج، ناظرا إليها.

كانت البنات يذهبن باتجاهه أثناء مغادرتهن معا، لكن عندما كدن يصلن إليه، انحرفت هى إلى اليسار، ووقفت محدّقة إلى لوحة "كاتدرائية سالزبرى". قد أقسم أنّ هذه كانت هى المرّة الأولى، بصرف النظر عن الفنان "ستابس"، التى كانت أيّا منهنّ قد ألقت عليها نظرة فى ذلك العصر.

مرّ بعض من مجموعتها إلى قسم الانطباعيين. وقفت محدّقة إلى الموظف المرسوم باللوحة، على بعد خطوات منها. رجعت إحدى البنات،وجذبتها من ذراعها، وأدارتها، حتى أصبحت الآن وجها لوجه

مع الرجل، الذى كان للمرّة الثالثة قد اجتذبها – أو اجتذبتها ذكرياته – باتجاهه. وقفت فقط فى مواجهته. وما تزال لم تنظر إليه. الأشخاص الصغار لا يرون مسنين، أو متوسطى العمر، أو الأكبر عمرا. ربّما كانت تحدق مباشرة إليه، لكنّها لم تكن تراه.

جذبتها صاحبتها عبر الأبواب الكبيرة. توقفت هناك، ونظرت إلى الوراء، وقال وجهها أنّها كانت تتساءل عمّا إذا كانت ضيّعت شيئا..نسيت شيئا.. فقدت شيئا؟

ثم اختفت مع مجموعتها.

تبعها ببطء. أو لا، كنت أفكّر. أنّه ببساطة، لا ينبغى أن يحاول أن يتكلم معها، أو يلفت انتباهها، أو يفرض نفسه عليها. إذا فعل ذلك، لكان من السهل تخيّل أصوات مرتفعة، ضحك قبيح، حتى أنّ "حادثة" مثل تلك يمكن أن تصل إلى الصحف. كان هناك جموح فى الجوّ، غير معبّر عنه، غرّ، وخطر.

الهوامش

(١) هو الفنان الانجليزى المعاصر جورج ستابس، الذى اشتهر برسم كثير من لوحات الخيول.

(٢) يدور الحوار، هنا، حول فيلم "الرجل الثالث" المأخوذ عن قصة الكاتب الانجليزى جراهام جرين، والذى عرض عام ١٩٤٩، وأخرجه كارول ريد.

التحديق

تقول هيلين:

– انظرى إليه

لم أقل شيئا، واستمرّ فى النظر.

– ماذا سيفعل، إذن؟

تتساءل مارى محدّقة إلى هيلين مثلما تفعل غالبا، كما لو أن لدى هيلين سرّا ما أو شيئا آخر.

– يستسلم.

تقول هيلين، وهى تضحك، الضحكة التى تأسر مارى. وبدا هذه المرّة أنّ تلك الفكرة تتردد داخلها بشكل مرضى، ووضح أن هيلين تتذكر شيئا لذيذا، لأنّها ظلت تبتسم.

هيلين، هى زوجة يونانية لـ"توم" الإنجليزى. رآها فى حانة فى

"ناكسوس"، حيث كانت تخدمه وتخدم السائحين الأجانب، كما لو كانت تؤدى لهم معروفا، فوقع فى حبّها. وأقنعها أن تعود معه إلى إنجلترا. لم تكن إنجلترا أرضا أجنبية تماما بالنسبة لها، لأنّه كان لها أقارب فى الجالية اليونانية والقبرصية الكبيرة فى بلدة "كامدين"، زارتهم ذات صيف. أما "مارى" فهى الزوجة الإنجليزية لديمتريوس، وكانت مع صديقة لها فى إجازة فى "آندروس"، حين وقع فى حبّها نادل وسيم لمقهى يطلّ على البحر. كان له أيضا أُقارب فى لندن. وهو الآن، نادل فى مطعم يونانى كبير يدعى "آرجونتس"، وينوى أن يتملك قريبا مطعما خاصا به سيسميه "ديمترى"، لأنّ ديمترى هو الاسم، الذى تدعوه به مارى، وهما يعيشان فى هذه الأثناء، فى غرفتين فوق محلّ بقالة يمتلكه "توم" زوج "هيلين".

تقضى المرأتان الصباحات معا، منهمكتين فى القيل والقال، أو متسوّقتين، لكن أصبح الآن لهيلين طفلا. وهما تذهبان غالبا إلى "ويمروز هيل"، وتجلسان على مقعد مع عربة أطفال مدفوعة إلى منطقة ظليلة. هناك زوجات أخريات، يونانيات وقبرصيات. فى أغلب الأحيان، تكوّن فى بعض الصباحات جالية نسائية إلى حدّ بعيد، لكن "هيلين" و"مارى" معروفتين، كصديقتين خاصتين. ويكوّن الزوجان فى بعض الأمسيات رباعيا فى إحدى الحانات، أو المقاهى، أو المطاعم. وفى هذه الأمسيات غالبا ما تهنئ "مارى" نفسها بأنّها اتخذت قرارات صحيحة انتزعتها من "كرويدون"، لتكون هنا مع بشر يضحكون بيسر، أو يبدأون الغناء، الذى قد ينتهى برقص مرتجل،

ولو على الموائد. ربّما لم تذهب إلى اليونان ذلك الصيف، ربّما اعتذرت لـ"ديمتريوس"، حين ضغط عليها أبواها.

ذهبت "مارى" فى هذا اليوم إلى البيت مستثارة، قلقة، وجلست أمام مرآتها، متفحّصة نفسها. غالبا ما تفعل ذلك. هى جميلة، ريّانة، متورّدة الوجنتين، ذات ضفيرتين سوداوين، وكثير من غمازات حسنة الموقع على وجهها، يدعوها ديمترى عليقته الصغيرة. لكن كان لها عينان رماديتان، يقول عنهما أنّه لولا تلكما العينين الانجليزيتين الباردتين، لآمن أنّها تمتلك دما يونانيا. تستكنّ عيناه السوداوان بيسر، أو تتوهجان، أو تنتقدان. تميل "مارى" بساعديها بين قنانى العطر الصغيرة، أحمر الشفاه، وطلاء العين، وهى تجرّب بعض التعبيرات. تضع على وجهها تحديقه طويلة متجهمة، لا ترفّ، وتخيف نفسها بها. تغلق عينيها، كما لو لترى ذلك التحديق على وجه "هيلين"، لكنها تفشل، لأنّ هيلين تبتسم فقط. تعجب مارى بـ"هيلين"، بتلك الابتسامة، التى تضعها باعتدال. ذهبت مارى إلى المكتبة، بسبب شىء قاله ديمترى، ووجدت كتابا عنوانه "أساطير يونانية للأطفال". وهناك قرأت أنه كانت هناك ذات مرّة منذ آلاف السنين، هيلين جميلة، وبسببها بدأ الرجال حربا. يسمى الآباء فى اليونان بناتهم الصغيرات هيلين، كما لو أن ذلك الاسم كان فقط "بيتى" أو "جوان". أخبرت "هيلين" "مارى"، أنّ "مارى" كانت أمّ الإله. لكن مارى قالت أنه ليس لها فى الدين.

لماذا يجب على مارى أن تجرّب اختيار هيلين بالتحديق الصامت

فى "ديمتريوس"؟ تلك هى المشكلة. تمتلئ مارى باستياء مزعج من الحياة، من نفسها، وهو ما يمثل اتهاما لزوجها. إنها تتساءل عن السبب فى شعورها هذا، لكنها قررت أن تدافع عن نفسها. إنه ساخط، لأنه يرغب فى بدء تكوين أسرة، خاصة وأنه يرى فى الوقت الحاضر صديقيه توم وهيلين مع طفلهما الرضيع. لكن مارى تقول "لا، يا ديمترى. دعنا ننتظر قليلا. لم العجلة؟". إنّها معنية حقا بإنجاب طفل، بل وحتى فى وقت قريب، لكنها خائفة من أن تضطلع بالأمر. ذلك هو ما يحدث. إنّها تفكر، مراقبة النساء اللاتى تراهن كل يوم. إنّ لديهن أطفالا رضع، و.. حسنا، لن أكون مثلهن. وهيلين لن تكون، أليس كذلك؟ إنه بالضبط نفس الأمر، كما لو أن ذلك الرضيع قد وصل من مكان ما خارج الهواء، وأمسكته كهديّة رماها شخص ما إليها. مارى تواظب على حبوب منع الحمل، ولا تنسى أن تأخذها. يقول ديمترى أشياء مثل "سأرمى كل تلك التفاهة، ذات يوم، إلى القمامة". فى مثل تلك اللحظات، يثير صوته القاسى وعيناه العنيفتان مارى، ويذكرانها بأيّامهما السابقة.

سألت هيلين:

– هل مازال توم كما هو بالنسبة إليك، فى الوقت الحاضر؟

فهمت هيلين فورا، وقالت بضحكة أشبه باستدعاء بأنّ لديها حياة سرّية ساحرة، تعتبر مارى باردة أكثر من اللازم كى تفهمها:

– بطبيعة الحال، هو انجليزى، أليس كذلك؟ إنه نفس الشخص تماما، الذى كانه عندما بدأنا معا.

انتقدت مارى بأسلوبها الصريح الذى ظنت فى البداية أنه "عديم اللياقة"، قائلة:

– أنت لا تفهمين أىّ شىء. إنّ الرجال اليونانيين رومانسيون عندما يراودون. إنّهم يقبّلون كثيرا ويجاملون. لكن حين تتزوجين تصبحين فقط مجرّد زوجة.

ذهبت مارى فى الصيف إلى "أندروس"، فراودها ديموتريوس بزهور وصابون معطّر وشيكولاتة، وقال أنّها جميلة، وأنّه لم يعرف أبدا أحدا مثلها. قبّلها فى ضوء القمر، بل وغمر يديها ذات ليلة بقبلات، ودموع حارة أيضا. عرفت مارى أنّ هذا هو الشىء الأكثر روعة من كل ما حدث لها على الإطلاق، أو من المحتمل أن يحدث مما جعلها مضطربة، أن يكون الأمر كذلك. من كان ديمتريوس، إذن؟ من فكر فيما كان؟ كان ذلك هو شعورها السرّى. وراقبته، بينما كان نائما، مفكّرة، لكن لماذا؟، لكنها كثيرا ما تذكرت فى أغلب الأحيان، أيضا، كيف كان عندئذ، فى ذلك الصيف، منذ ثلاث سنوات مضت. أصبح الآن عاقلا مثل أىّ رجل انجليزى. مثل توم، الذى تنهدت بسببه هيلين، وكأنّ ابتسامتها كان تقول أنه كان من حسن الحظ أنّ تحبّ مرح توم فى الفراش، وإلاّ لاعتقدت أنه لا يحبها.

تفكّر مارى فى قصة مشابهة، تتساءل عن السبب فى أن هيلين قالت نعم لتوم. كان يبدو على مايرام، ليس سىء الطلعة. تقول هيلين "إنه يجعلنى أضحك". لكنها بالتأكيد، تجده مملا فى بعض الأحيان. لكن هل مازال ديمترى يحبّ مارى؟

فى تلك الليلة، عندما تدحرج نحوها فى الفراش، قالت:

– لا، لا أشعر بميل لذلك.

كانت تحاول أن تجعل نفسها تبدو مثل "هيلين"، عندما تثير وتتدلل، لكنها عرفت أنها لم تنجح. إنّها لم ترفض من قبل أبدا: لقد أحبّت مرحها فى الفراش، أيضا. كان مندهشا، كما لو أنها قالت أنّها تريد الطلاق. ألحّ طالبا:

– ماذا يحدث لك؟

كان ينبغى أن يكون سؤاله "لماذا فعلت؟". ومع ذلك لم تكن تعرف بم تجيب إذا سألها. أدارت ظهرها إليه، عارفة أنّ ذلك يؤذيها بقدر ما يؤذيه. يمكنها أن تحسّ بحيرته، وهج أذى على كتفيها. همس بشىء ما، كانت سعيدة أنّها لم تسمعه. رقد متيقظا، وهى أيضا، لكنهما تظاهرا بأنهما نائمين.

استمر يتنهد فى الصباح التالى، مانحا إيّاها نظرات متهمة بشدّة. تصادف أنّه كان يوم سبت، وفى تلك الليلة ذهب أربعتهم للشراب فى حديقة حانة، ثم تناولوا العشاء فى مطعم كان ديمترى نادلا فيه، لكن تلك كانت ليلة عطلته. أحيانا تعمل النساء هناك كنادلات حين يحتاجون عملا إضافيا للتدبير المنزلى.

عرفهم كل الحضور، لوّح لهم الناس، أو نادوا عليهم محيّين، أو جاءوا لإبداء إعجابهم بالطفل النائم فى عربته. رأت مارى كيف تعلقت هيلين بذراع توم، وعرفت أنهما سيمارسان الجنس لحظة وصولهما للبيت. حين وصل ديمتريوس ومارى إلى البيت، قال لها:

– آمل ألاّ تكون الليلة كالأمس.

كان أخرقا فى تهكّمه، وهو ما سهّل عليها أن تقول:

– قد أكون، وقد لا أكون.

لكنه، هاجمها فورا فى الفراش، بينما حاولت التذمّر لنفسها، ولم يكن من الملائم أن تقول أنها لم تشعر بالأمر، بينما كان واضحا لكليهما أنها فعلت.

– متى ستمنحيننى طفلا؟

قال بعد وهلة، وهو يفعل شيئا كانت تجده دائما مخيفا ومثيرا، حين كان يدير خاتم الزواج حول أصبعها مرارا وتكرارا، كما لو أنه كان يفكر فى إلقائه بعيدا.

– سأرى.

قالت، عالمة أنّها لم يسبق لها أن استفزته بهذا الشكل من قبل. عندئذ وجدت نفسها تغتصب. لم يكن هناك تعبير آخر. كانت نزّاعة تماما إلى الإفلات من الجنس الحالى، لذلك لم يمكنه أن يعرف إذا ما كنت قد أثيرت، وضعفت تماما، وهو ما مكّنها أن تقول بسهولة فورا وفى المكان نفسه:

– نعم، كلّ شىء سيكون على مايرام حول الطفل.

وذلك بافتراض أنه لم يتأوّه فى أذنها:

– أيتها المرأة، أريد طفلا. الآن، وليس بعد عشر سنوات.

لم تقل كلمة على الإفطار فى الصباح التالى. لم يلاحظ ذلك. كان يتناول متمهلا الخبز المحمص والمربى والقهوة. لم يكن عليه أن يكون

فى المطعم قبل الحادية عشرة. كانت تلك أفضل فترة فى يومهما، تلك الساعات السابقة لذهابه إلى العمل. تكلما، أو لم يتكلما، وقرأ كلاهما الجريدة، وكانا يعودان أحيانا إلى الفراش. عرفت أنه إذا جاء الطفل، فإن صباحاتهما لن تكون ثانية هكذا. أخبرته بذلك، فقال:

– وماذا فى ذلك؟

جعلها هذا تشعر بأنه لم يعد يحبّها. استمر ذلك حتى نهاية الإفطار، عندما أدرك أن صمتها كان مقصودا، رفع رأسه، ونظر إليها طويلا، بشدّة، فنظرت إليه ببرود. وهكذا، استمرّت فى الأمر، محدّقة دون أن تطرف عيناها، وهو ما تمرّست عليه أمام المرآة. قال:

– ما الأمر بحق الجحيم؟

– ماذا..؟

لم تقل شيئا، بل ظلت جالسة أمامه، محدّقة. كان ذلك يثير حنقه، كما أمكنها أن ترى، وسرّا كانت مستفزة، كانت مستثارة. ولم تجب بكلمة، بينما هو سادر فى تعجّبه واتهامه، وسؤاله عمّا فكّرت فى فعله بحقّ الجحيم، ثم صاح فيها بعد ذلك:

– بغى!

ومضى إلى عمله. جلست مارى مع هيلين خارج حانة فى الشمس، مع الطفل الرضيع وعربته بينهما. فكرت مارى، إننى لا أمانع حقا فى وجود طفل، كما أفترض. سأتخلى عن الحبوب، وأرى ما يحدث. لكننى لن أخبر ديمترى، ليس بعد. ولن أستسلم للطفل.

– إلى متى تتمنّعين عليه؟

تساءلت، محاولة أن تجعل صوتها يبدو عاديا، لكن هيلين سرعان ما فهمت، وقالت:

– أوه، ليس طويلا. أودّ فقط أن أرى إلى متى أستطيع التمنّع عليه. لأننى أريد التسليم، ولا أفعل.

لماذا تجد هيلين كل شىء سهلا، هكذا؟ إنّها تتحدث كما لو أن الأمر كله لا شىء، مجرّد دعابة. لماذا لا أجد الأشياء سهلة؟ كانت مارى تفكّر، بينما جلست صامتة، مكتئبة، ناظرة إلى ساقى هيلين الطويلين النحيفين السمراوين، وإلى ذراعيها النحيفين السمراوين أيضا، وإلى شكل فستانها الأسود، وإلى شعرها الأسود المتألق منسابا على كتفيها. قد يبدو الفستان مثل نتوء علىّ... بدأ الطفل يبكى، فالتقطته هيلين، دون أن تقلق على الإطلاق، ناظرة بالكاد، وغنّت له جزءا من أغنية رعاية أطفال يونانية بصوتها الجنسى العميق. توقف الطفل عن البكاء. كانت الرأس اللطيفة الصغيرة على بعد بوصات من مارى، وجعلتها رائحة الطفل الحميمة الحلوة ترغب فى البكاء. أوه، لا، فكّرت، أوه، لا – لكن هيلين ناولتها اللفة المحبوبة للطفل عرضا، وهى تقول:

– أنا ذاهبة إلى المرحاض.

ومشت مبتعدة، وملابسها الكتانية السوداء تتأرجح من حولها.

فكّرت مارى، أفترض أن ديمترى سيغنى لطفلنا أغانى يونانية. حين يتحدّث ديمتريوس وهيلين معا باليونانية، كانت مارى تنصت،

دون أن تفكّر فى الكباب والتراماسلاطه اليونانية ونبيذ الريتسينا اليونانى، وكل تلك المادة المتوفرة هنا فى لندن، بل فى الشمس الساطعة على البحر الغامق الزرقة، والصخور الدافئة، وأشجار الزيتون والغناء. غالبا عندما يتحدث اثنان من اليونانيين معا، فان توم ومارى – اللذان لا يعرفان أكثر من عدّة كلمات باليونانية – يتبادلان ابتسامات العارفين بأنّ هذين اللذين تزوّجاهما كانا أحيانا فردين غريبين بالنسبة لهما.

لم تتحدث مارى مع ديميتريوس تلك الليلة، عندما حضر كالمعتاد متأخرا جدا بعد منتصف الليل، لكنها انتصبت فى الفراش، محملقة إليه، عندما كان يتعثر فى الحجرة، ويشتم، وهو يخلع ملابسه بأىّ شكل، ثم راميا نفسه فى الفراش، وظهره إليها. اشتاقت أن تضع ذراعيها حوله من وراء، وأن تفعل ما يحبّ، بأن تقضم أذنه، ثم تقبّله، وتعضّ رقبته. فى المرة الأولى، التى فعلت فيها ذلك، كانت كمن تقفز فوق سياج إلى الظلام، لأنّها كانت تأخذ المبادرة، التى لم تفعلها – أحبّت أن تكون الشخص الذى يقول نعم – وهناك، هبّت فورا عاصفة جنسية. لكن لم يكن الأمر كذلك دائما: "لن أدعك تستخفّين بى"، قال ديمترى، يستثيرها – فكرت، ثم رأت ثانية أن هذه رقته، لأنّه كان حسّاسا، مفاجئا لها، وذلك عندما تعتقدين أنّه مجرّد رجل ضخم خشن مثير للضوضاء. عرف أنها قد تكون خجولة، خائفة، من أن يطلب منها الجنس بدلا من مجرد العناق فقط أحيانا، وذلك هو ما أبقاها تحرز. رأت هيلين تمنح توم لمسات صغيرة، وملاطفات،

وضعت نظرة تعجب على وجهه، وهو ما حاولته مع ديمترى – دون أن تعرف هيلين أبدا أنها قد فكّرت أن تفعل أشياء كهذه. إنّها ترقد الآن إلى جانب ديمترى، متصلبة، وهى تفكّر أنه كان من السهل ذات ليلة أن تضع أحد ذراعيها حول زوجها، ليكون سعيدا حتى الصباح، وفى الليلة التالية سيكون مستحيلا أن تضع يدا لتلمسه، ناهيك عن القبل والعضّ الرقيق.

حافظت على الصمت مستمرّا طوال الليل، لذلك لم تنم، حتى الصباح التالى أثناء الإفطار. والآن، أصبحت خائفة. جلست محدّقة إليه، بينما حوّل هو عينيه. وكان ينظر إليها أحيانا نظرة تعجب، غاضبا، خائفا. لكن بقدر ما كانت خائفة، لم تكن راضية، وكان عدم رضاها من كل شىء، ومنه، كاتهام له، يقوى كلّ لحظة، لأنّ ما كانت تفعله كان يغذيه. ينبغى أن يكون فى حالة حسنة، ينبغى أن يقبّل يديها، ويغطيهما بالدموع، قائلا، أنه آسف.

كانت حريصة على أن تبدو نائمة فى تلك الليلة، حين جاء من المطعم. ربّما سيقبلنى، فكّرت: غالبا ما يفعل، عندما تكون نائمة. سترفع ذراعيها وتجذبه إليها. لكنه لم يقبّلها.

أمكنها أن ترى نفسها جالسة هناك فى الصباح، على الإفطار، بوجهها المحدّق كطبق رادار متتبعا تحركاته حول الحجرة. رغم ذلك، لم يكن ينظر إليها. فكّرت، إنه غبى. فقط لأننى لم أضع ابتسامة على وجهى، ولم أتكلم – لكننى نفس الشخصية من الداخل. ألست كذلك؟ وفى نفس الوقت، كان يتعثر ويتخبط فى الأشياء. بدا كما لو أنها

صبّت عليه لعنة. ترك قهوته، وانطلق مباشرة إلى الخارج. فى الصباح التالى، نهضت قبل أن يستيقظ، وكانت على وشك أن تنزلق بهدوء من الفراش، حتى لا تضطر إلى "أن تكون فى وضع استعداد"، كانت تفكّر به الآن، لكنه انتصب جالسا فى الفراش، وعدّلت هى وجهها كى تحدّق إليه عبر حافة اللحاف. أطلق صيحة، كما لو أنه يعانى من كابوس، ثم بدأ ينشج:

– إنك امرأة قاسية، يا مارى. إنك امرأة قاسية، صعبة.

تنهّد تلك الليلة فى نومه، وتأوّه، وصرخ، وهو ما بدا مثل لعنات باليونانية، أخافتها. يمكنه قتلى، فكّرت، و، لا، لم تكن قريبة أبدا من أىّ شىء مهدد، فقررت، سأوقف ذلك. هذا كاف. لكنها لم تستطع أن تتوقف. ثبتت بنفسها تحديقة اتهام متصلبة على وجهها. وفكّرت، لكننى حملقت إليه لسبب وجيه، ألست كذلك؟

ومرّت الأيام. ذات مساء، عندما كان الأربعة معا، أملت مارى ألاّ يلاحظ الآخران أنها تتجاهل ديمتريوس، وأنه يفعل أىّ شىء ليتفادى النظر إليها. لكن هيلين لاحظت، هذا حسن.

سألت مارى هيلين، فى اليوم التالى:

– إلى متى استمريت فى الأمر؟

– لم أجعله يزيد أبدا عن يوم. حسنا، إننى أحبه، أليس كذلك؟ بدت مراوغة نوعا ما.

لقد انقضت الآن ثلاثة أسابيع منذ أن بدأت مارى معاملتها. كانت فى حالة هياج مرعب، ولم تخرج أبدا على الإطلاق، بل جلست

تبكى، ثم جلست صامتة، تحملق، ليس فى ديمترى، لأنه لم يكن هناك، بل فى الحائط. لم تكن تعرف ما يجرى، لكنه كان فظيعا. هل فقدت زوجها؟ إنّه لم يعد حتى وقت متأخر جدا، لأنّه كان يسكر. وحين يفعل، فإنّه يتعثر فى الحجرة، ويشتم باليونانية. ثم ذات ليلة لم يعد إلى البيت.

تساءل توم، حين قابل مارى فى الطريق:

– ماذا يحدث بينك وبين ديمترى؟ هل تشاجرتما؟

– لا شىء من ذلك.

تقول مارى باسمة، بينما تشعر أن حياتهما تتهاوى.

وضعت مارى ذراعيها تلك الليلة فى الفراش حول زوجها المخمور، من وراء، واستكنّت، قائلة:

– هيا، يا ديمترى، لا تعبس.

– اذهبى إلى الجحيم!

صاح، ونهنه بصوت صاخب، بشكل جعلها تكرهه، ثم سرعان ما سقط نائما. فى الصباح، نهضت وغادرت الفراش، وأعدّت الإفطار، وحين خرج من الحمام، وارتدى سترته استعدادا للخروج، احتجزته عند الباب، قائلة:

– لقد أعددت إفطارا طيّبا من أجلك.

عندئذ ضحك، لكنه كان ضحكا كالعواء، وهزّ أصبعه بتهكم أخرق، قائلا:

– إنك تتكلمين. أنت لا تستعملين الكلمات معى، لذا اصمتى، فأنا

لا أريد أن أسمعك.

وانصرف.

ذهبت مارى إلى حيث كانت هيلين مع الطفل. كانت بين مجموعة من الزوجات والأطفال. كانوا جميعا يضحكون، ويثرثرون، ويهزّون أطفالهن. هل كانت تلك هى هيلين حقا؟ هل كانت مريضة، أو شيئا ما؟ بدت نحيفة، بل وحتى قبيحة، بثدييها المرضعتين المتكتلتين. وبينما وقفت تنظر إلى هيلين، مفكرة، لكن ليس ذلك ما تمثله هيلين، فكّرت إنّ ديمترى بدا لها فى هذه الأيام رجلا أخرق سمينا بوجه سكير منتفخ أحمر. مضت مارى للانضمام إلى المجموعة، ورأت أنّ هيلين لم تتحرّك على المقعد كى تفسح لها مكانا. شقت مارى طريقها، وكان إصرارها شديدا، بحيث راحت تنتظر تحرّك واحدة فواحدة من النساء بعربات أطفالهن وكراسيهن المضغوطة، وانصرافهن بعيدا.

الآن، حكت مارى القصّة كاملة لهيلين، وعرفت أنها بدت كامرأة مجنونة. كانت هيلين تدفع عجلة الطفل للأمام والخلف. دفعتها باتجاه واحد، هازة إيّاها إلى أعلى وأسفل، جاذبة إيّاها للوراء باتجاهها. هازة لها فى وقفة تفكير طويلة، ثم دفعتها ثانية للأمام، وبدا بالنسبة لمارى أنّ عجلة الطفل أصبحت جزءا من الإنصات والحكم.

– هل تمنّعت عليه لمدة ثلاثة أسابيع؟

سألت هيلين أخيرا، بحرص أوحى لمارى أنّها تحاول السيطرة على رد فعل حاد. كان وجهها ممزقا. ربّما لم تكن أبدا أفضل

صديقة لمارى. كررت هيلين:

– ثلاثة أسابيع.

ثم استطردت:

– لا غرو أنه كان مريضا

– هل كان مريضا؟

– ألا ترين ذلك بنفسك؟

تساءلت هذه الهيلين الجديدة، بوجهها الكئيب البارد، الذى ليس جميلا على الإطلاق. كانتا جالستين على مقعد خشبى قبيح خارج حانة تحتاج إلى طلاء، ولم تكن جذابة على الإطلاق، بالرغم من وجود بعض أشجار غار على كلتا جانبى الباب. كانت الأشجار متربة، وتحتاج إلى ريّ.

– قال توم أنّ ديمتريوس كان مخمورا بالأمس فى العمل. سيفقد عمله إذا لم يكن حريصا.

لم تستطع كلمات "لكنك منحتينى الفكرة"، أن تخرج على لسان مارى. كانت تسأل نفسها – وكانت هى فى قبضة الرعب، الذى كان شرطها الدائم – لماذا نفذت ما قالته بالشكل الذى فعلت؟

– من الأفضل أن تحاولى إصلاح الأمر معه.

أعلنت هيلين ذلك، وهى تنهض من المقعد، وتنصرف مع طفلها، دون أن تبتسم لمارى، أو حتى تقول لها "أراكى غدا".

"لقد فقدت هيلين أيضا"، فكّرت مارى. ذهبت لتجلس خارج المطعم، الذى يعمل به ديمترى. كان لديه ساعة استراحة فى فترة

بعد الظهيرة. حين خرج، جرت إليه، واضعة ذراعها على ذراعه، قائلة:

– ديمترى، أنا آسفة. أنا آسفة، يا ديمترى.

كانت تبكى وكان يبتعد عنها، قائلا:

– إذن، أنت آسفة، وهذا كل ما يتوجّب عليك قوله. لماذا كان كل ذلك؟ أريد طفلا، هذا كلّ ما فى الأمر. أنت امرأة سيئة، يا مارى.

أمكنها أن ترى أنه شعر برعب وهو ينظر إليها، بسرعة، لأنّه كان خائفا من أن يظهر ثانية على وجهها ذلك التحديق البارد الغاضب. حاول أن يسحب ذراعه جانبا، لكنه تشبثت به بشدة، وقالت:

– رجاء، رجاء، رجاء، رجاء، يا ديمترى.

توقف هناك، نصف مستدير، مع نظرات جانبية عصبية إليها، لكن متفاديا النظر إلى عينيها اللتين أوجعتاه. راحت تفكّر، إنه سيكرهنى إلى الأبد، لكنها ظلت تناشده:

– رجاء، يا ديمترى، عد إلى البيت الآن.

وقف الاثنان قريبين على الطوار، يتجاوزهما البشر عابرين إيّاهما بشكل حسن، وكانت هى متعلقة به من أجل حياة غالية، فذلك هو ما أحسّت به تجاهها، لأنّ كلّ شىء كان مهددا بالضياع. كانت تبكى بصوت مرتفع، وكان هو هائجا، محتقنا، وبائسا.

كان البيت على بعد بضعة دقائق. مضى متعثرا إلى جوارها، بينما حافظت هى على إمساكه بشدّة، لأنه قد يهرب، ولا تراه ثانية.

حاولت فى البيت أن تسحبه إلى غرفة النوم، لكنه جلس إلى

المائدة ورأسه بين يديه. تساءل:

– فيما تفكرين الآن؟

ثم استطرد:

– سنمارس الجنس، ويكون ذلك نهاية الأمر.

– لقد أوقفت تناول الحبوب، يا ديمترى.

– إذن، أوقفت تناول الحبوب.

– تعال إلى السرير، رجاء. يا ديمترى.

– يا لها من طريقة لإنجاب طفل.

أمسكت يديه لإنهاضه، وكانت تفكّر، لكن متى سبق أن تحدثت معه فى الفراش من قبل؟ ترك نفسه يسحب، متعثرا بها فى الفراش. كان يبكى بانتحابات مؤلمة، قبيحة، خشنة. لقد كسرته. لم تكن تشعر بأىّ شىء مثل إثارتها الصغيرة من نصر أو من خوف لطيف من ألعابهما الجنسية. كانت تثرثر بداخل نفسها "سيتجاوز الأمر، وينسى، ونعود كما كنا". بدا لها الآن كم كانا رائعين، ولم تستطع أن تفهم لماذا نبذته.

فى نفس الوقت، لم يكن الأمر بالتأكيد أمر ممارسة حبّ، أو حتى ممارسة جنس، لأنها كانت ممسكة بيدها قطعة متقلصة من لحم، وهو ما لم يحدث من قبل أبدا.

– إيّاك أن تفعلى ذلك مرة أخرى.

قال بصوت جديد، قاسى، يائس. ثم استطرد:

– إيّاك أن تفعلى ذلك، إننى أقول لك. سأقتلك، إذا فعلت ذلك.

سأخرج فقط، ولن أعود ثانية إلى البيت، أبدا، ولذلك إيّاك أن تفعلى ذلك.

اضطجع على السرير، لكن على ظهره، دون أن يستدير. دسّت نفسها داخل ذراعه، راقدة قربه بقدر ما تستطيع.

– أوه، يا ديمترى، إننى شديدة الأسف.

كانت تبكى، لكنها شعرت بتحسّن، لأنها قررت أن تسمع ما قال كنوع من مغفرة. ثم حدثت نفسها "سننسى كل هذا خلال يوم أو أثنين، وسيعود كل شىء كما كان".

أنا بصفتى رياضيّة

يمكننى فى كثير من الأحيان أن أكون موجزة ومسموعة، "ذلك، أنّ قطيع طير غينى فى بلد جائز الصيد فيه قانونا، يمنحنى رياضة طيبة ملائمة". أنتقل، من هناك، إلى ذكر مألوف لحيوانات أخطر – أيل وأسود، وما شابه ذلك – وبمثل لمح البصر ينزّ حسدا أكثر الرياضيين صلابة، ممّا قد يجعل الأمر يبدو كأننى أمضيت فترة صبا البنوتة فى رحلات سفارى دائمة، لكننى أحتفظ بالحقيقة لنفسى.

لا يعنى ذلك أننى لم أر أسودا. لقد صادفتها مع حيوانات أخرى مثيرة، فى حديقة حيوانات لندن، حيث أمضى لمشاهدتها ما بين فترة وأخرى. كما اعتادت حيوانات من كل نوع، أن تزدهر، على أرض وطنى، التى هى أرض "ماشون" فى جنوب رودسيا. وكلّ ما أعرفه،

أنها ما تزال تزدهر. أنا لا أهتم. ولم أهتم أبدا.

تبدو الحقيقة، مع كلّ لامبالاتى تجاه أىّ لعبة صغيرة أو كبيرة، فى أنّ كلّ هذا التعقد مرتبط بشكل يتعذر معالجته حول منافسة أخوية (لأخى) واحتجاج ضد الذكور (بشكل عملى ضد كلّ شىء). بدأ ذلك كلّه مبكرا، حين منح أخى بندقية عيار ٢٢ميلّى. لكن ربّما يكون من الأفضل الرجوع إلى الوراء أكثر، إلى درّاجته، التى قادها بشكل مثالى فى المحاولة الأولى، بينما أمكننى أن أنظر إليها فقط، وأرتجف خوفا. أيقنت أنّه لن يتيسر لبنت أن تركب درّاجة ولد، وأصررت على أن تكون لى دراجة ملكى، وأنا أعرف تماما أنّ حالة الأسرة المالية قد تنحّى جانبا تحقيق ذلك لوقت غير محدد.

قد يكون من السهل أن نفهم ما حدث، على ضوء السلوك المعيب والمراوغ، حين ظهرت البندقية عيار ٢٢ ميلى، أثناء إحدى عطلات أخى المدرسية. التقطها، وصوّب على طائر صغير مستكن على غصين صغير يبعد مائة ياردة. ضغط الزناد بتعقل، فسقط الطائر ميّتا. أتذكّر أنّه شعر بسوء، لأنّ الطلقة لم تمرّ بالعين. بالنسبة إليه، فإنّ الرياضة ينبغى أن تمارس بألوانها الصحيحة، فأن تطلق النار على طائر ساكن ينبغى أن تكون أدنى مرتبة، وإذا لم يُمْكِنُ التصويب بشكل جيد على طائر يحوم فى اتجاه معاكس على بعد مائة وخمسين ياردة، مَع ريح قوية، فينبغى ألاّ تطلق النار. أمّا بالنسبة إلى ظبى – ليس فقط لكونه متوفرا فى أراضينا، بل لأنّ أكله ملائم جدا أيضا – فلا ينبغى أن يقتل أىّ منها، إذا لم يرتب أولا أن يرهقه

بالزحف خلال أجمة كثيفة، ويفضّل أن يكون هناك طين ثقيل.

عندما سلّم البندقية إلىّ، ذات يوم، قلت أننى لا أهتم بها. لا أستطيع أن أتخيّل أبدا، لماذا لم أتمسك بهذه الحقيقة المجرّدة؟ وقد أشرت إلى أنّه حتى "هانتر جيم والفانت بيل(١)" استعملا بنادق رش على أجنحة الطيور والآيل على طول المدى، ولم يقتنعا أبدا أن يستعملا بندقية عيار ٢٢ ميلى، لكنّ أخى لم يتأثر. ولم أكن أتوقع أن يفعل.

بعد أن رجعت من المدرسة، تسللت إلى غرفته، وأخذت البندقية عيار ٢٢ميلى من حشية الفضلة المزيّتة، التى وضعها فيها خلال فترة دوام الفصل الدراسى. أمضيت أسبوعا أو أكثر أفتح وأغلق البندقية بنشاط، مدخلة ومخرجة الرصاص فيها ومنها. وعندما أمكننى أن أفعل ذلك دون أن أجفل، خرجت بها إلى الأجمة.

كانت هناك أجمات كثيرة حول منزلنا .. فى الحقيقة، أميال منها فى كلّ اتجاه، بريّة، غير مسكونة، جنّة حقيقية للرياضيين. أتذكّر بوضوح، كيف أننى فى ذلك اليوم الأول، أمضيت الوقت متكاسلة، أفكّر فى جنيفر وآن من جرين جابلز(١) حتى أنعمت النظر أخيرا إلى ثور كودو جميل (ظبى فى حجم حصان، يعتبر من أعظم نوع مشتهى)، سرعان ما شبّ على حوافره فى كثيب نمل، وهرب. شاهدته يذهب. (لا حاجة إلى القول، أنّ أخى قد أطلق النار خلال العين على نصف دستة من ثيران الكودو، فى نزالات غير عادلة).

ظهر تاليا، ظبى ديكر إفريقى، فوضعت البندقيّة عل كتفى،

وأطلقت النار بشكل متكرر، لكن دون أيّة نتيجة، طالما أنّ ذلك المخلوق اختفى قبل أن أتمكن من التصويب عليه.

كان هذا يوما محبطا، ولم تكن الأيام التالية أفضل حالا. كنت أجلس ذات يوم، على صخرة فى فسحة، حين ركضت طيور دجاج الغرغر الحبشى أمامى، سرعان ما تبعها حوالى عشرون طيرا غينيا آخر، وذلك فى تجمّع واحد. رفعت بندقيتى، وأطلقت النار على كلّ منها. كان الأمر تماما مثل إطلاق النار فى معرض مرح، دون أن تكون هناك أرانب تتحرك أمامك فى مجموعة أو ما تحبّ من أشياء أخرى. أخطأت كلّ العشرين طيرا غينيا، وفكّرت كم سيكون الأمر أكثر سهولة لو أنها جهّزت كى تظلّ ساكنة. ومن هذه الفكرة تولد نجاحى، وطالما أنه يعتمد تماما على عادات الطيور الغينية، فإننى سأصفه من وجهة نظر رياضية، وليس من وجهة نظر عالم تاريخ طبيعى.

تتحرك طيور غينيا من أىّ مكان، فى قطعان ما بين عشرة إلى مائتين. يمكن سماع صوتها من بعيد، بسبب ما تحدثه من صوت "تشيك، تشيك"، الرنّان، الذى يكون مثل احتكاك أحجار معا تحت الماء، ويعلن هذا الرنين عن حضورها لأميال لكلّ عدو حولها. وعندما تنزعج، وهو ما يحدث بانتظام، فإنها تطلق صيحة استغاثة خشنة، وتهرول مسرعة فى كلّ الاتجاهات. ولو أنها تمسّكت بذلك، لأصبحت منيعة من الناحية العملية، لكن، لا .. كان الفضول هو سبب سقوطها. كانت فى كثير من الأحيان، قبل أن تقطع أيّة مسافة، تطير

صاعدة إلى الأشجار، لمعرفة ما يجرى. وبمجرّد أن تحطّ على الأشجار بأجنحتها الضعيفة، فإنها تصبح كارهة لأن تنطلق ثانية إلى الفضاء.

خرجت ذات يوم مع البندقية، آخذة هذه الحقائق فى الاعتبار، وكذلك كلّ ما يترتب عليها. وتجوّلت حتى سمعت صوت "تشيك، تشيك"، فتسللت باتجاهها. ثم رميت حجرا كبيرا عليها. كان هناك الآن أربعة وسبعين طائرا غينيا تعدو منطلقة، سرعان ما حطّت على الأشجار من حولى. عرفت أنّ هناك أربعا وسبعين، لأننى جلست على زند خشب، ورحت أعدّها، مقررة أيها تبدو أصغر وأسمن. ثم صوّبت بعناية، وأطلقت النار. قفز الطائر مدركا لوجودى، وتراجع للوراء، وراقبت ورقة شجرة تهبط من سعفة من ارتفاع ثلاثة أقدام فوق رأسه، وتتهاوى عند قدمىّ. حاولت ثانية. كم كان صعبا من قبل، أن أحافظ على ماسورة البندقية ثابتة، لكن أصبح لدىّ أخيرا كلّ الوقت المتاح فى العالم للتمرّس عليها. مشيت إلى شجرة قريبة، ووضعت ماسورة البندقية أمام جذعها للمساعدة.

كان الطائر، الذى اخترته، على بعد حوالى أربعة ياردات. حافظت على البندقية ثابتة لوقت كافى، حتى أطلقتها على حويصلة الطائر. سقط، ألحقتها بطلقة أخرى فى العين، وذهبت به إلى البيت. افترضت الأسرة، عند ذلك بطبيعة الحال، أننى أطلقت على الجناح، وفى العين – لم تلاحظ الطلقة الأولى – وأرسلت رسالة بهذه الأخبار فورا إلى أخى.

منذ ذلك الحين فصاعدا، وبينما بقيت تقنيتى فعليا، كما هى، فقد أدخلت أعمال تحسين صغيرة عليها. على سبيل المثال، رغم أنّه كان من الواضح أنّ كلبا مدربا قد يكون عديم الفائدة بالنسبة لى، إلاّ أنّه كان لدينا كلب يناسب أغراضى. أخذته بقربى. انطلق بسرعة وعزم تماما باتجاه صوت ألّ" تشيك، تشيك"، حالما سمعه. وبمضى الوقت وصلت عشرات من طيور غينيا، التى حطّت فعلا على كلّ الأشجار من حولى، وهى تراقب الكلب، الذى كان يثب ويصرخ تحتها، صارفا انتباهها عنّى بشكل مرضى تماما، بينما رتبت نفسى، واخترت طيرى على مهل.

حوصرت طيور غينيا بكلب نابح يميل إلى أن يظهر عدم ارتياحه بالدوران والدوران ببطء حول مجثمها، لكنه كان يدور أيضا حول محوره الخاص، مقدّما بذلك هدفا ثابتا تقريبا لى. بدت هناك فرصة واحدة سانحة، حين استقر طائر على شجيرة منخفضة مسحورا بالكلب، لدرجة أننى كنت قادرة على الاتكاء، وسحبه من ساقيه من الغصن. ثم عصرت رقبته. حين أخذت الطير للبيت، لم أكشف أبدا عن هذه الحادثة المحزنة لأىّ فرد، بل أوضحت أن الرصاصة ضربت منقاره وصعقته، وقلت بلامبالاة أنّ ذلك بدا مثل أحد مفاخر أخى الملتوية.

عرفت جيدا، عندما رجع أخى إلى البيت، أنّ تلك ستكون نهايتى. وقد أخذنى فى الحقيقة إلى المرج، مساء يوم وصوله، قائلا:– الآن، دعينا نراك وأنت تفعلينها.

راح الكلب ينبح وراء طيور غينية، أطلقت النار بإهمال على طائر يرتفع إلى شجرة، ارتعشت، وقلت ناقدة ذاتى:

– يا اللعنة، طلقة سيئة.

رأى أخى فورا، بطبيعة الحال، أنّ أىّ رياضة مع ذلك القطيع قد حانت نهايتها، لكنّ الكلب واصل الأنين بوضوح تحت طيور ريّانة مختلفة، بينما انطلقنا – أنا وأخى – بحثا عن أهداف منقولة جوا.

حدث هذا عدّة مرات. اشتكت أمى أنّ المخزن فارغ من اللحوم. أصاب أخى، لحسن الحظ، ظبى إفريقى صغير. سدد إليه طلقة متسابق غير متوقع فوزه أسفل التل فى ضوء سيء. أكلنا الظبى على مدار أسبوع كامل (عيب الحياة فى جنّة رياضى، هو ضجر الحمية)، وكنت قادرة على القول أنها ليست رياضة على الإطلاق أن تقتل حيوانات، بينما لم نكن فى حاجة إلى اللحوم. ثم كانت هناك عشرة أيام أخرى من إجازة أخى لابد أن تنقضى، وبات افتضاح أمرى وشيك الحدوث. حاولت إرجاء ذلك بقول أننى كنت عاجزة عن إطلاق النار لأسباب نفسية، على أىّ شيء أثناء مراقبته. خرجت إلى الأجمة وحدى، وتبعنى أخى سرا، وضبطنى متلبسة بإطلاق النار على طائر مستكن على بعد أربع أو خمس ياردات. أخبرته أن سلوكه كان جبانا وخسيسا، لكنه كان مصدوما تماما. أحسّ أن الضربة كانت موجّهة إلى الشرف العائلى بعمق شديد، لدرجة أنّه لم يقل شيئا ذلك المساء على العشاء. أعتقد أنّه كان يتساءل كيف يبلغ الأمر إلى أبى بأقل طريقة جارحة.

خرج أخى، تلك الليلة، إلى بقعة إطلاق نار للصيد مع ضوء مرافق. لم يكن الطريق، الذى سلكه إلى تلك البقعة ممهدا، لأنّه رأى أنّ الفرص كانت فعليا على الجانب الآخر. كانت تستعمل أنواع بسيطة فقط من أنوار السيارات الأمامية. ثبّت أخى مصباح دراجة ضعيف إلى جبهته، ومضى قدما إلى الأمام مثل سيكلون (٢)– كيخوتى. تكون الممارسة المعتادة فى تلك الحالة أن تثبّت عين الحيوان بالضوء، ثم تمشى إلى أقرب ما يمكن من المخلوق المنوّم، وتطلق عليه النار. عنى أسلوب أخى أنّ المخلوق قد يكون مستثار الانتباه، لكنه ليس ثابتا. قد يكون لديه كثير من الفرص للهرب.

رجع أخى من تلك المهمة شديد الاكتئاب. كان قد رأى بوضوح عينين خضراوين على بعد خمسين ياردة، لم يتحرّكا. صرخ، لكن لم يحدث شىء. أطفأ مصباح رأسه، وأطلق النار بين العينين. لم يتحرّكا. أطلق النار ثانية. كان من الواضح استحالة أنّه أخطأها، لكنه أطلق النار ثلاث مرّات أخرى. ثم توجّه إلى هدفه مقتنعا أنه قد يجد خمس جثث مكوّمة هناك. وجد، بدلا من ذلك، اثنين من صرار الليل على زند خشبى. كان الحادث صفعة لكبريائه، لدرجة أنه نسى أن يناقش حادثتى مع أبوى. كان هذا، إجمالا، من حظّ الأسرة، التى بعد أن رجع أخى إلى المدرسة، استمررت فى إمدادها باللحم، حتى جاء يوم سعيد، كنت قادرة فيه على الرحيل إلى المدينة، والتمتع بمسرّات الحضارة.

كانت مواهبى كصيّادة مفيدة فى مناسبة وحيدة أخرى. حدث

ذلك، عندما أصبحت مخطوبة فى المدينة، أو مرتبطة – تزوغ منى الكلمات الدقيقة لهذه العلاقة – مع رجل شاب كان رياضيا من جميع الوجوه. كانت مبادئه عن الشرف معقدة، وسببت لى ساعات استبطان كثيرة، ونتيجة لذلك استنتجت أننا كنّا غير ملائمين. لكنّه، لم يكن يفكر هكذا، بل حاول أن يقنعنى أنّ ترددى فى ربط مصيرى إلى الأبد مع مصيره، كان نتيجة كونى فى مقتبل العمر. كنت فى ذلك الوقت فى السادسة عشرة من عمرى.

ومن بين فضائله الأخرى، كانت لديه أفكار حول الصيد، إطلاق النار وصيد السمك، يمكن أن توصف فقط بأنها كلاسيكية. وكان لديه عدد كبير من أوسمة ذهبية وفضية فى مهارة الرمى وإصابة الهدف. وكان بطبيعة الحال، متلهفا لزيارة مزرعتنا، حيث يمكنه أن يثبت نفسه. إذ أنه منذ أن غادر اسكتلندا منذ عشرة سنوات، لم يشترك فى أىّ إطلاق نار أرضى، أو فى ميدان رماية.

تصنّعت أعذارا لفترة، لكنها أخذت فى النقصان. ثم ذهبنا إلى البيت فى زيارة نهاية أسبوع. أخذته إلى منطقة إطلاق النار على طيور غينيا، التى كنت مشهورة بها. لكننى بطبيعة الحال بنكران ذاتى واضح يرجع لحسن الضيافة، دفعت البندقية إلى يده. وحالا، أظهر صحة تربيته بقوله أنه لم يسمع أحد أبدا عن إطلاق النار على طيور ببندقية. لكنه حاول، وأخطأ عددا من الطيور الغينية المهرولة على امتداد الأرض، والتى كانت مدهشة بقوّة، نظرا للسرعة التى تتقدم بها. ثم أخطأ عددا آخر يتسلق الأشجار. لم يصب أيّا منها.

وبمضى الوقت، أصبح فى مزاج سىء. دفع البندقية ثانية إلى يدىّ، وقال:

– حسنا، لقد أظهرت لى كيف أقوم بالعمل.

كانت الطيور الغينية كلها آمنة الآن على الأشجار. رمينا أحجارا عليها، بل وهززنا الأشجار حتى، لكنها لم تتزحزح. لم أستطع أن أطلق النار. بدأنا التمشية إلى البيت على امتداد مدقّ عبر مرج، بينما كنت أبتهل ألاّ يعلن قطيع آخر من الطيور عن نفسه. خططت أن أتكلم بصوت عال جدا، إذا سمعت "تشيك، تشيك" حتى أحجب صوتها. فجأة صاح:

– انظرى، إنّها الآن فرصتك!

رأيت، على بعد مئات الأقدام، حجلا يراوغ بين أخاديد الطريق. أشكّ فيما إذا كان حتى أخى يمكن أن يصيبه. ارتفعت هبّة صغيرة من ريح وغبار. رأيت فرصتى سانحة، فغمغمت:

– اللعنة على هذا الغبار.

وأطلقت النار عشوائيا.

انحسر الغبار. رأينا الحجل راقدا ميتا. كانت طلقة عبر الرأس .. طلقة موجهة من بعيد، من مسافة مائة وسبعين ياردة: أصبت الحجل بأسلوب كفء، وذرع رفيقى المسافة مرتين. لم أقل شيئا بطبيعة الحال، فالفرد لا يتباهى.

ثم بدأ يشكو أنه لم يكن معتادا على البندقية، لأنّه مضت عشر سنوات منذ أن أطلق النار على هدف متحرّك. وهكذا، استمرّ يتلمس

الأعذار لنفسه على العشاء. كان أبى صامتا. تخيّلت أن صمته يرجع للسبب المعتاد – كان يفكّر فى شىء آخر – لكن خاطرا داهمنى فى البيت، بأنّ ذلك يرجع إلى أنّ حسّه بآداب السلوك قد انتهك.

تذكّرت، أن رياضيا جيدا، لا ينبغى أن يضع اللائمة أبدا عن فشله على الطقس، أو الحظّ، أو أىّ شىء، ما عدا نفسه. لم أفهم السبب أبدا، لكن هكذا هو عالم الرجال. فى اليوم التالى، قال أبى على نحو مكفهر أنه ليس هناك مثل الرياضة، لتظهر نقط الضعف فى شخصية رجل. وهو ما دعّمنى، فأصبحت قادرة على أن أفسخ خطوبتى أو ارتباطى، بالشكل الأكثر جدارة بالاحترام. اكتسبت، بعد ذلك، سريعا مبدأ صلبا. أعنى، أن من الخطأ إطلاق النار على طيور من أىّ نوع. وعند ذلك ألقيت بندقيتى.

الهوامش

(١) من أبطال قصص "رايدر دايجست" المختارة.
(٢) هما بطلتا حكاية خرافية من تأليف لوسى مود مونتجمرى، وجنيفر هى زوجة الملك آرثر وعشيقة لانسلوت كما ورد فى الأسطورة.
(٣) "عملاق من جيل العمالقة فى الأساطير اليونانية ذا عين واحدة وسط الجبين".

الفصل الثالث:

قصص الألمانية هيرتا مولر (نوبل ٢٠٠٩)

الألمانية هيرتا مولر (نوبل ٢٠٠٩)

ولدت مولر فى ١٧ اغسطس ١٩٥٣ فى غرب رومانيا لوالدين من أقلية تتحدث الألمانية. قررت تكريس حياتها للأدب منذ أن أصدرت مجموعتها القصصية "السهول"، التى كانت أول مجموعة قصصية لها وصدرت فى ألمانيا عام ١٩٨٨، ثم ترجمها إلى الإنجليزية "سيجليند ليج" وصدرت عام ١٩٩٩ عن وكالة جامعة نبراسكا بالولايات المتحدة الأمريكية، ثم توالى إنتاجها الروائى بعد ذلك مؤكدا موهبتها. وقد جرى اختيار ترجمة خمس من قصص هذه المجموعة.

لعل أول ما يلاحظ على هذه القصص هو قصر جملها الشديد بحيث قد لا يتجاوز طول الجملة عشر كلمات، لكنها كلمات محددة واضحة ساطعة. وبالمثل جاء حجم بعض قصصها شديد القصر

بحيث لم يتجاوز حجمها صفحة واحدة مثل قصة "حمام سوويبيان". وهى جميعا أقرب ما تكون إلى مقاطع من سيرة طفولة الكاتبة فى الريف الرومانى فى السبعينات متناولة من وجهة نظر طفل صغير فى الأغلب الأعمّ، حيث يتداخل فيها الواقع مع الحلم. ونظرا إلى جذور الكاتبة وأصولها الأولى التى ترتبط بالـ"سوويبيان" (هى منطقة تاريخية فى جنوب غرب ألمانيا، تشتمل أيضا على أجزاء من فرنسا وسويسرا)، فقد انعكس ذلك الارتباط فى أكثر من قصة لها ("حمام سوويبيان"، و"أوتوبيس الأرياف") وربّما كان الحنين إلى ذلك العالم القديم، هو أحد حوافز كتابة تلك القصص.

حمام سوويبيان

إنها ليلة السبت. توهّج جوف موقد الحمام. أغلقت نافذة التهوية بإحكام. أصاب الهواء الرهيب، فى الأسبوع الماضى، "آرنى" ذات العامين ببرد. تحمم الأم ظهر "آرنى" الصغيرة بسروال قديم باهت. تضرب "آرنى" الصغيرة الماء من حولها بشدّة. تخرج الأم "آرنى" الصغيرة من حوض الاستحمام. مايزال الماء ساخنا. تنتشر رغاوى الصابون. تثير الأم تموّجات رمادية صغيرة عند رقبتها. تطفو تموّجات الأم على سطح الماء. للحوض مسحة لون صفراء. تخرج الأم من حوض الاستحمام. مازال الماء ساخنا، تنادى الأم على الأبّ. يدخل الأبّ إلى حوض الاستحمام. الماء دافئ. تنتشر رغاوى الصابون. يثير الأب تموّجات رمادية صغيرة عند صدره. تطفو تموّجات الأب مع تموّجات الأم على سطح الماء. أصبح للحوض

مسحة بنيّة اللون. يخرج الأب من حوض الاستحمام. مازال الماء ساخنا، يصيح الأبّ مناديا الجدّة. تدخل الجدّة إلى حوض الاستحمام. الماء فاتر. تنتشر رغاوى الصابون. تثير الجدة تموّجات رمادية صغيرة عند كتفيها. تطفو تموّجات الجدّة مع تموّجات الأم وتموّجات الأب على سطح الماء. صار للحوض مسحة قاتمة اللون. تخرج الجدّة من حوض الاستحمام. مازال الماء ساخنا، تصيح منادية على الجّد. يدخل الجدّ إلى حوض الاستحمام. الماء بارد مثلج. تنشر رغاوى الصابون. يثير الجدّ تموّجات رمادية صغيرة عند مرفقيه. تطفو تموّجات الجدّ مع تموّجات الأم والأب والجدّة على سطح الماء. تفتح الجدّة باب الحمام. تتطلع الجدّة إلى حوض الاستحمام. لا تستطيع الجدّة أن ترى حوض الاستحمام. تغلق الجدّة باب الحمام وراءها. يفرّغ الجدّ ماء الحمام من حوض الاستحمام. تدوّم تموّجات الأم والأب والجدة والجد الرمادية الصغيرة حول البالوعة.

تحممت أسرة السويبيان على نحو منعش، وتجلس الآن أمام التلفزيون. تنتظر أسرة السويبيان، التى تحممت على نحو منعش، فيلم ليلة السبت.

أوتوبيس الأرياف

صاحت امرأة واقفة فى المواجهة وراء سائق الأوتوبيس تماما: "جيرلينـد، لماذا تركتيه يصبح مخمورا بهذا الشكل وكنت جالسة إلى جواره، أليس كذلك؟". رفع طفل سمين أبكم بصره. قالت المرأة لرجل ظهرت عظام وجنتيه ساطعتا الاحمرار، ويده ممسكة بقضيب رفّ الأمتعة، وقد مرّت يده الأخرى التى بدا فيها أصبعه السبابة دون ظفر عبر شعره إلى رقبته: "أين عقلك، يا فرانز؟"

"أنظر كيف تتعرّق، رغم أننى أعطيتك قميصا نظيفا دون جدوى، لأنّك حتى عندئذ لن تصبح إنسانا"

كانت زهور الأقحوان تهتزّ على رفّ الأمتعة وهى ملفوفة بورق جرائد. قد تتفتّح بينها براعم باهتة صلبة عند منعطفات الطريق.

قالت امرأة: "هذه الزهور هى ما نريده حقا، سلسلة زهور حائط

نموذجية، لكنها سرعان ما تزوى لدرجة تجعلك مريضا"

قال رجل: "تملأ نسوة "السويبيان"(×) كلّ الأوتوبيس بثرثرتهن"

جلس غجرى على الإطار الإضافى ماضغا بذور يقطينة فى الجانب الأيسر من فمه باصقا القشر من جانبه الأيمن.

"سيلتهم هؤلاء الأشخاص كلّ شىء. كان هناك ثلاثة منهم فى القرية بالأمس بسيارة سوداء. ارتدى ثلاثتهم بذلات. كانوا يجمعون دواجن ميّتة بعد أن سمعوا بمرض الدجاج. ماتت ثلاث دجاجات لأمّى. لا تستطيع أن تقول ذلك بمجرّد النظر إليها. كانت تقوقئ ثم تنقلب وتموت. يمتلك أولئك الأشخاص سيارات، لم يكن أبدا لدى أىّ فرد منّا مثل تلك الأموال. لا يأكل أىّ فرد منّا دجاجا ميتا، لكننا نمرض دائما، حتى لو أكلنا دون ملح، دون فلفل، دون سكر، ودون دسم"

"كان زوجى فى محلّ الحلاق عصر أمس. هو، فى هذه الأيام، الشخص الذى يخلع الأسنان فى القرية. لم يعد طبيب الأسنان يأتى. قال: "إن مرض القرية هو تسوّس الأسنان، حتى الأطفال لها أنياب مسوسة"

أقول: "مائة كذبة من أجل كلّ سنّ، هذا يكفى. كلّ تلك الحشوات فى فمك". أقول: "دعه يخلعها كلها وركّب طقم أسنان"

"فرانز، هلا أبعدت زجاجة مشروب "شنابس" تلك بعيدا. هل تفعل؟. لقد أسرف فى الشراب عدد وافر من البشر"

"لن تستطيع أن تقول لهم أىّ شىء. بالنسبة لى فمازلت أحيا، لكنهم فقط لن ينصتوا"

"نعم، لكنهم لن يموتوا قبل أن يلتهموا حياتك"

كان عصير العنب الأحمر الدموى اللون يقطّر من رفّ الأمتعة على رأس أحد الركاب. تساءل ذلك الشخص الذى يقطّر العصير على رأسه: "حقيبة من هذه؟". لم يتفوّه أحد بكلمة.

دفع النافذة فاتحا ايّاها، ورمى الحقيبة خارج النافذة.

قالت امرأة بصوت خفيض: "يا له من شخص أبله"، وعندما نظر إليها قالت بصوت مرتفع: "إنّ الحقيبة لا تخصّنى، لكنك شخص أبله على أيّة حال"

سحبت الستائر من أحد الجوانب. بدت الشمس حمراء، وذلك يؤذى عينيك.

كان الطفل السمين الأبكم يقضم جديلة شعر المرأة برفق. ورأت المرأة التى تجاورها ذلك، وقالت "آخ". نظر الطفل إلى الناحية الأخرى وراح يعضّ جديلتها بشكل أعمق.

كان الأوتوبيس يقعقع ماضيا إلى ماوراء حوائط ساطعة حمراء ليست بها نوافذ، بل مجرّد لافتات صغيرة متشابكة بأحرف كبيرة سوداء وجمل كبيرة سوداء، ولا يمكن أن تتبدّى للعيان ككلمة.

قال شخص ما: "أسيجتهم لونها أحمر أيضا"

"بترت يدا ولد بواسطة مكبس خمسة أطنان أثناء مناوبة الليل بالأمس. طرد رئيس العمل ميكانيكيا وأعطاه زجاجة مشروب "شنابس"، ثم عيّنه فى قسم مصابيح الإضاءة المفقودة. أمسك العمّال بالميكانيكى فى غرفة تغيير الملابس وهو يصبّ مشروب "شنابس"

للولد. انقضوا على الميكانيكى، وهو الآن فى المستشفى"

أحنى الطفل السمين الأبكم رأسه أمام زجاج النافذة، وكان يسمع تردد تنفسه فى أنفه. عضّت المرأة لسانها عندما عبر الأوتوبيس الأخدود. بكت وتردد صوت تنفسها فى أنفها.

بقيت الذرة تالفة فى الحقل. أكلت الخنازير الكبيرة ذيول الخنازير الصغيرة. يقولون إن ذلك مرض أصابها أو هو سفاح قربى.

ذاب كمّ وافر من الثلج فى الربيع، بأكثر ممّا أثلجت. كذلك ماتت كلّ الخراف عدا عدد قليل منها ذبح فى وقت مبكر. كانت مصابة بأورام خبيثة فى الدماغ. وقد مات الراعى من شدّة الإجهاد.

"فرانز، لماذا تركتها تتناول حبوبا، وكنت تقف رغم كلّ شىء مجاورا لها تماما؟"

قال الرجل: "أبصقيها خارج فمك يا جيرليند، إنها مسروقة"

تراجع الطفل السمين الأبكم بسرعة، وبدا ضجرا من الحقيبة الكبيرة المليئة بالحبوب. أغلق المهندس الزراعى زمام الحقيبة المنزلق.

ضحكت امرأة بعصبية. قالت: "لقد تعلموا كيف يقوموا بصفقات رابحة فى الجامعات. ارتد سترتها يا فرانز"

قال الرجل: "هيا يا جيرليند، فأنت لا تستطيعين أن تجدى الكمّ"

ارتدى الغجرى الرابض على الإطار الإضافى جوربيه القصيرين، وانزلقت قدماه إلى داخل حذائه.

نظر السائق إلى الأوتوبيس الخالى، وأصيب بحازوقة.

قالت امرأة: "زررى أزرارك يا جيرليند"

أسرتى

أمّى امرأة معصوبة العينين.

جدّتى عمياء نتيجة إصابتها باعتام عدستي العينين. فى إحدى عينيها إعتام رمادى وفى الأخرى إعتام أخضر(×)

جدّى مصاب بفتق فى الفخذ.

لأبى طفل من امرأة أخرى. أنا لا أعرف المرأة الأخرى ولا الطفل الآخر. الطفل الآخر أكبر منى، وذلك هو السبب فى قول الناس أنّه جرى إنجابى بواسطة رجل مختلف.

يهدى أبى هدايا عيد الميلاد للطفل الآخر، ويخبر أمّى أنّ الطفل الآخر جرى إنجابه بواسطة رجل مختلف.

يحضر ساعى البريد لى دائما فى رأس السنة مظروفا به مائة "لى" من العملة الرومانية، قائلا أنّه من "سانتا كلوز". لكن أمّى تقول

أننى لست ابن رجل آخر.

يقول الناس إنّ جدّتى تزوجت جدّى لأنّه كان يمتلك حقلا، لكنها كانت تحبّ رجلا آخر، وأنّه كان من الأفضل لو أنّها تزوجت الرجل الآخر، لأنّها شديدة القرابة لجدى لدرجة يكاد أن يكون زواجهما سفاح قربى صريح.

يقول أناس آخرون إنّ أمى من قبل رجل مختلف، وإن خالى من قبل رجل مختلف، ليس نفس الرجل المختلف، بل من قبل رجل آخر.

ذلك هو السبب فى أن جدّ الطفل الآخر هو جدى، ويقول الناس إنّ جدّى هو جدّ طفل آخر، ولو أنه ليس نفس الطفل المختلف، بل من شخص آخر. ويقولون إن "أم جدتى" ماتت شابة من برد مزعوم، وإن ذلك كان شيئا مختلفا تمام الاختلاف عن موت طبيعى، أعنى انتحارا.

ويقول أناس آخرون إنه كان شيئا مختلفا عن المرض، وشيئا مختلفا عن الانتحار، أعنى قتلا متعمّدا.

تزوّج "أبو جدّى" فورا، بعد موتها، من امرأة أخرى. كان لديها عندئذ طفل من رجل آخر لم تكن قد تزوّجت منه فى ذلك الحين. وبعد هذا الزواج الآخر، أصبح لديها طفل آخر من "أبو جدى". يقول الناس إنّ هذا الطفل الآخر من قبل رجل آخر أيضا، وليس من قبل "أبو جدى".

كان "أبو جدّى" يذهب كلّ يوم سبت لسنوات متتالية، إلى منتجع صحّى فى مدينة صغيرة بها ينبوع مياه معدنية.

يقول الناس إنه كانت له علاقات مع امرأة فى هذه المدينة الصغيرة.

بل إنه شوهد ممسكا بيد طفل آخر فى أماكن عامة، وكان يتحدّث مع ذلك الطفل لغة مختلفة أيضا.

لم يشاهد أبدا مع المرأة الأخرى، لكن الناس تقول أنّها لم تكن شيئا إلا مجرّد بغى منتجع طالما أن "أبو جدى" لم يصطحبها أبدا إلى أىّ أماكن عامة.

يقول الناس إن رجلا لديه امرأة أخرى وطفل آخر خارج قريته يستحق أن يحتقر وإن ذلك ليس أفضل من سفاح قربى، بل قد يكون أسوأ من سفاح قربى صريح، إنه خزى تام.

(*) وهو ما يعرف علميا بالـ"كتراكت:"Cataract، ويسمى ذلك المرض فى ألمانيا بألوان الطيور فمنه الرمادى والأخضر.

موعظة الجنازة

كان الأقارب يجرون فى محطة السكك الحديدية جنبا إلى جنب مع قطار ينفث دخانا. تحرّكوا بأذرعة مرفوعة مع كلّ خطوة وهم يلوّحون.

وقف هناك شاب وراء نافذة القطار، وقد ارتفع الزجاج حتى إبطيه. أمسك إلى صدره باقة زهور بيضاء رثة. كان وجهه صارما. حملت امرأة شابة طفلا لطيفاً إلى خارج محطة السكة الحديد. كانت المرأة حدباء.

يغادر القطار إلى الحرب.

أغلقت جهاز التلفزيون.

كان أبى راقدا داخل تابوت فى وسط الغرفة. غطيت الحوائط بصور عديدة له لدرجة أنّه لا يمكن رؤية الجدار.

فى إحدى الصور، كان الأبّ فى نصف طول الكرسى الذى يمسك به، وقد ارتدى ملابسا، وكانت ساقاه المنحنيتان تتشكل كلتاهما من راقات شحم، ورأسه أصلعا على شكل كمثرى.

بدا الأبّ عريسا فى صورة أخرى. يمكنك أن ترى نصف صدره فقط. كان النصف الآخر باقة زهور بيضاء رثة فى يد الأم. رأساهما شديدا التقارب لدرجة أن شحمتى أذنيهما كانتا تتلامسان.

فى صورة مختلفة، وقف الأبّ كسهم قصير فى مواجهة سياج. هناك ثلج تحت حذائه. ثلج شديد البياض لدرجة بدا معه كأنّه محاط بالفراغ، يده مرفوعة فوق رأسه بالتحية، مع حروف أبجدية على ياقته.

فى الصورة التالية، جلس الوالد خلف عجلة قيادة شاحنة، ممتلئة بأبقار. كان الوالد يحمل أبقارا إلى المسلخ فى المدينة. وجه الأب نحيف ذو جوانب قاسية.

فى كلّ الصور، جرى تجميد الأب وسط التفاتة. ظهر الأب، فى كلّ الصور، كما لو أنّه لا يدرى ما يجب أن يفعل. لكن الأب كان دائما يعرف ما يجب أن يفعل. هذا هو السبب فى أنّ كلّ تلك الصور كانت خاطئة. لقد ارتجّت الغرفة، بكلّ تلك الصور الزائفة، وكلّ تلك الوجوه الزائفة. وحين أردت أن أنهض عن الكرسىّ، كان ثوبى متجمدا فوق الخشب. ثوب شفاف أسود اللون يطقطق كلما تحركت. نهضت ولمست وجه الأب. شعرت به أكثر برودة بكثير من كلّ الأشياء الأخرى فى الغرفة. كان الصيف فى الخارج. الذباب يسقط يرقاته

خلال الطيران. امتدت القرية على طول الطريق الرملى الواسع. طريق ساخن أسمر، يحرق عينيك بتوهّجه.

بنيت الجبانة من حجارة. وكانت هناك شواهد على القبور.

عندما نظرت لأسفل إلى الأرض، لاحظت أنّ باطن فردتى حذائى كانتا مقلوبتين. كنت أسير طوال الوقت على أربطة حذائى. استقرت ورائى فردتا حذائى طويلتين ثقيلتين وقد انثنى طرفيهما.

رفع النعش رجلان قصيران مرتبكان من عربة الموتى، ودلياه إلى القبر بحبلين باليين. تأرجح التابوت. استطالت أذرعتهما وحبالهما أكثر وأكثر. امتلأ القبر بالماء رغم موسم الجفاف. قال أحد الرجلين القصيرين المخمورين، قتل أبوك كثيرا من البشر.

قلت، لقد كان فى الحرب، ومقابل قتل كلّ خمسة وعشرين فردا كان يحصل على وسام. أحضر إلى البيت عددا من الأوسمة.

استطرد الرجل القصير، لقد اغتصب امرأة فى حقل لفت. هو وأربعة جنود آخرين. وكانت تنزف عندما رحلنا. كانت روسية. سمّينا الأسلحة "لفتا" لأسابيع بعد ذلك.

قال الرجل القصير، جرى ذلك فى أواخر الخريف. كانت أوراق اللفت سوداء، مطويّة تماما بسبب الصقيع. ثم وضع صخرة على التابوت.

أكمل الرجل القصير الآخر المخمور، ذهبنا بمناسبة رأس السنة الجديدة، إلى الأوبرا فى مدينة ألمانية صغيرة. كان صوت المغنى خارقا تماما مثل صرخات المرأة الروسية. غادرنا المسرح واحدا بعد

الآخر. مكث أبوك حتى النهاية. سمّى الأغنيات لأسابيع طويلة بعد ذلك، ثمرات لفت، وكلّ النساء ثمرات لفت.

كان الرجل القصير يتناول شراب "شنابص" المسكر. قال الرجل القصير، الذى كانت معدته تقرقر، هناك فى بطنى شراب هولندىّ مسكر بقدر المياه الجوفية الموجودة فى القبور.

ثم وقف الرجل الذى سيتلو موعظة الجنازة بجوار الصليب الرخامى الأبيض. جاء باتجاهى، وقد دفن يديه الاثنتين فى جيبى معطفه.

وضع الرجل الذى سيتلو موعظة الجنازة وردة بحجم اليد فى فتحة زراره. كانت مخملية اللون. عندما أصبح بجوارى تماما، أخرج يدا من جيبه. كانت قبضة يده. أراد فرد أصابعه، لكنه لم يستطع. جعل الألم عينيه تبرزان. بدأ يبكى فى سرّه بهدوء. قال، فى الحرب لا يمكنك أن تمضى باستمرار مع مواطنيك. لن تستطيع أن تأمرهم.

ثم وضع الرجل الذى سيتلو موعظة الجنازة صخرة كبيرة على التابوت.

جاء الآن رجل سمين. وقف إلى جوارى. رأسه مثل أنبوب دون وجه.

قال، لقد نام أبوك مع زوجتى لأعوام. ابتزنى حين كنت مخمورا وسرق نقودى. ارتاح الرجل على صخرة.

ثم جاءت امرأة هزيلة مغضنة الوجه باتجاهى، وبصقت على الأرض، ولعنتنى.

وقف تجمّع الجنازة على الطرف المقابل للقبر. انطويت على نفسى وأجفلت مندهشة لأنهم يمكن أن يروا صدرى. شعرت ببرودة.

كانت أعين الجميع علىّ. بدت نظراتهم فارغة. كان بؤبؤ عيونهم بارزا من وراء جفونها. حمل الرجال بنادق فوق أكتافهم. كانت النساء مسترسلات سريعا فى سلاسل صلواتهن.

اقتلع الرجل الذى يلقى موعظة الجنازة وردته. مزق بتلاتها الدموية الحمراء وأكلها.

أشار لى بيده. عرفت أنّه ينبغى علىّ الآن أن ألقى كلمة. كان الجميع ينظرون إلىّ.

لم أستطع التفكير فى مجرّد كلمة. كانت عيناى تصعدان إلى رأسى عبر حلقى. وضعت يدى فى فمى، وعضضت على أصابعى. يمكنك أن ترى علامات أسنانى على ظهر يدى. كانت أسنانى ساخنة. تجرى دماء من زوايا فمى إلى كتفى.

مزقت الريح كمّ ثوبى. كان يرفرف أسود اللون متدحرجا فى الهواء.

مال رجل بعصاه أمام صخرة كبيرة. صوّب مسدسه وأطلق النار على كمّى. عندما غاص إلى الأرض فى مواجهتى، كان مغطى بالدماء. صفق تجمّع الجنازة.

كان ذراعى عاريا. شعرت أنّه تحجّر فى الهواء.

أعطى المتحدث إشارة. توقف التصفيق.

قال، نحن فخورين بتجمعنا. أنقذتنا إنجازاتنا من الانحدار. لن

ندع أنفسنا تهان. لن ندع أحدا يفترى علينا. باسم تجمّعنا الألمانى أنت محكوم عليك بالموت.

صوّبوا جميعا بنادقهم إلىّ. وقع انفجار مدوٍ فى رأسى.

انقلبت ولم أصل إلى الأرض. ظللت معلقة فى الهواء فوق رؤوسهم. بهدوء دفعت الأبواب لتفتح.

أزالت أمى محتويات كلّ الغرف. كانت هناك مائدة طويلة فى الغرفة حيث جرى تمديد الجثمان. كانت مائدة مستطيلة. وهناك طبق أبيض فارغ وزهرية بها باقة من زهور بيضاء رثة.

ارتدت أمى ثوبا شفافا أسود اللون، وقد أمسكت سكينا كبيرا فى يدها. وقفت أمى أمام المرآة، وقصّت جديلة شعر ثقيلة رمادية بالسكين الكبير. حملت الجديلة بكلتا يديها إلى المائدة. وضعت أحدى نهايتيها فى الطبق.

قالت، سأرتدى ملابس سوداء بقية حياتى.

أضرمت النار فى نهاية الجديلة، فامتدت النار من إحدى طرفى المائدة إلى الطرف الآخر. احترقت الجديلة مثل فتيل. كانت النار تلتهم وتلعق.

قالت، لقد حلقوا شعرى فى روسيا. كان ذلك أقلّ عقاب. ترنحت من الجوع. زحفت ليلا إلى حقل لفت. كان لدى الحارس بندقية. لو أنه رآنى لقتلنى. لم يحدث الحقل حفيفا.

كان الوقت أواخر الخريف، وكانت أوراق اللفت مطويّة أكثر من ذى قبل بسبب الصقيع.

لن أر أمى بعد الآن. ظلت الجديلة تحترق. امتلات الغرفة بالدخان. قالت أمى، لقد قتلوك.

لم يعد أحدنا يري الآخر أكثر من ذلك. كان هناك دخان كثيف فى الغرفة.

سمعت خطاها قريبة منى. كنت أتلمس طريقى إليها بذراعين ممدوين. فجاة أمسكت يدها النحيلة بشعرى. هزّت رأسى. صرخت.

فجأة فتحت عينىّ. كانت الغرفة تدور من حولى. كنت أرقد فى كرة من زهور بيضاء رثة، وقد أغلق علىّ.

ثم أصبح لدىّ شعور أن مبنى السكن ينقلب، ويفرغ نفسه على الأرض.

رنّ المنبه. كانت الساعة الخامسة والنصف من صباح السبت.

عن قصّات شوارب وشعر ألمانية

رجع صديق مؤخرا إلى بيته فى قرية قريبة. كان يريد أن يزور أبويه هناك. قال، يوجد هناك شفق طوال اليوم. ليس هناك نهار أو ليل. لا يوجد غسق أو فجر. الشفق فى وجوه الناس.

لم يتعرّف على أىّ شخص على الرغم من أنّه عاش فى تلك القرية عدّة أعوام. يمتلك كلّ البشر نفس الوجوه العجوزة الرمادية. تلمس طريقه إلى ماوراء تلك الوجوه. حيّاهم فلم يصله أىّ ردّ. استكان باستمرار إلى الحوائط والأسيجة. ومشى أحيانا بين البيوت التى بنيت عبر الطريق مباشرة، فانصفقت كلّ الأبواب وراءه بعنف، وهى تصرّ. وعندما لم يجد أمامه أىّ شىء عرف إنّه رجع إلى الطريق ثانية. تحدّث الناس لكنه لم يفهم لغتهم. واذا أقبلوا أو أدبروا عنه، لم يستطع أن يطلب منهم أن يمشوا قريبا منه أو بعيدا عنه. سمع

ضربة عصا رجل على جدار، فسأله أين يمكن أن يجد أبويه. أجاب الرجل بجملة طويلة تناغمت فيها كلمات عديدة، مشيرا بعصاه إلى الفضاء.

كانت هناك لافتة تحت ضوء مصباح مكتوب عليها "محلّ حلاقة". أفرغ الحلاق سلطانية من القصدير ممّا حوته من ماء ورغوة بيضاء عبر الباب إلى عرض الطريق. دخل صديقى إلى المحلّ. كان رجال كبار السن جالسين على مقاعد طويلة أو نائمين. حالما يحين دور أىّ منهم، كان الحلاق ينادى اسمه. يستيقظ بعض ألنائمين إثر ذلك النداء، ويصيحوا جميعا معا مكررين الاسم الذى نودى عليه.

استيقظ الرجل الذى نودى عليه، وعندما جلس على الكرسى المواجه للمرآة سقط الآخرون فى النوم مرة أخرى.

تساءل الحلاق: قصّة ألمانى؟

أومأ الرجل برأسه، ناظرا إلى المرآة بصمت. بدا أنّ الرجال على المقاعد الطويلة معنيين بالبقاء دون تنفسّ. جلسوا هناك بصرامة كجثث. يمكنك أن تسمع فقط صوت حركة المقصّ.

أفرغ الحلاق سلطانية القصدير ممّا حوته من ماء ورغوة بيضاء عبر الباب ثانية إلى عرض الطريق. وقف صديقى قريبا من دفقة الماء. كان مائلا بظهره على إطار الباب. زمّ الحلاق شفتيه كما لو أنه يصفرّ. لم يصفرّ. تطلع عابسا إلى وجوه أولئك النائمين. ثم طقطق لسانه. فجأة نادى الحلاق اسم والد صديقى. استيقظ بعض الرجال وكرروا معا اسم والده بأعين مفتوحة تماما. نهض رجل ذو وجه

رمادى وشارب أسود ملتو، وذهب إلى الكرسى. سقط الرجال على المقاعد الطويلة فى النوم ثانية.

تساءل الحلاق: قصة ألمانية؟

أجاب الرجل: قصة شعر وشارب ألمانية.

يمكنك أن تسمع صوت المقصّ وسقوط أطراف شاربه المستدقة على الأرض.

ذهب صديقى على أطراف أصابعه باتجاه الكرسى. قال: "أبى". حدّق الرجل الجالس على الكرسى بعناد إلى المرآة. ربت صديقى بيده على ظهره. كان الرجل الجالس أمام المرآة يحدّق ربّما بعناد أكبر إلى المرآة. أمسك الحلاق بالمقص مفتوحا على سعته فى الهواء. حوّل يده المبسوطة وأدار المقص على محوره مرّة أخرى حول إبهام يده. رجع صديقى إلى مكانه مائلا بظهره ثانية على إطار الباب. كسا الحلاق بأصابع مفرودة شعر لحية الرجل الجالس على الكرسى برغوة الصابون. طفا غبار رمادى بين الوجوه فى مواجهة المرآة. أفرغ الحلاق سلطانية القصدير مما حوته من ماء ورغوة بيضاء عبر الباب إلى عرض الطريق. أغلق الرجل تماما الباب الذى يلى الماء المتدفق. ذهب صديقى على أطراف أصابعه إلى الطريق. مشى الرجل باتجاهه رأسا – أم كان ذلك رجلا آخر؟ كان الغسق على وجهه تماما. لم يستطع أن ير بعد ذلك ما إذا كان الرجل قادما ناحيته أم مبتعدا عنه. ثم لاحظ أنّ الرجل كان يبتعد عنه، كان يشبه فى ابتعاده رجلا غلبه النعاس رغم أنّ الطريق كان هادئا.

صادف صديقى عدّة أسيجة وحوائط. مشى إلى محطة سكك حديدية عبر عدّة بيوت كانت مبينة عبر الطريق.

كان يعانى من ألم قاسى فى الظهر عندما مشى، فأيقن أنّه قد انحنى لفترة طويلة على إطار الباب. شعر بألم شديد فى أصابعه فأيقن أنّه دفع فاتحا عددا من الأبواب. عندما اقترب القطار من المحطة شعر بألم شديد فى حلقه، فأيقن أنّه كان يتحدّث إلى نفسه طوال كلّ ذلك الوقت.

لم ير ناظر المحطة. لكن ناظر المحطة أطلق صفارة طويلة فاترة. أثار القطار بعض الرياح عندما اقترب. أطلق القطار صفارة قصيرة مبحوحة. كانت هناك شجرة قريبة من قضبان السكك الحديدية بين الغسق وبخار القطار. مازالت تلك اللافتة على جذعها. رأى صديقى من القطار المتحرّك أن تلك اللافتة لم تشر إلى اسم القرية مثلما جرت العادة، بل كان مكتوبا عليها ببساطة "محطة سكة حديد".

كتب صدرت للمترجم

ثمانية وعشرون كتاباً منشورا.
أولا: النقد الأدبى: ١٤ كتابا
ثانيا: الرواية: (٥ روايات)
ثالثا: القصص القصيرة: مجموعتان
رابعا: الترجمة: (سبعة كتب)

١) "ذلك العالم المدهش: حوارات مع كتاب عالميين" الهيئة العامة لقصور الثقافة٢٠٠٢

٢) "الرواية فى إفريقيا" ج م كويتزى الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٤.

٣) "القصة: المادة، البنية، الأسلوب، مبادئ الكتابة للسينما": روبرت مكى المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٧.

٤) "عينا النمس: قصص من أمريكا اللاتينية"دار أزمنة بالأردن ٢٠٠٧.

٥) "مع كتّاب نوبل: حوارات نادرة" الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٧.

٦) رواية "الكنز": للسويدية سلمى لاجرلوفالدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٩.

٧) "روائع الأدب العالمى فى كبسولة: ٨" الدار العربية للكتاب ٢٠٠٩.

المحتوى

– مـقـدمـة 5

* **الفصل الأول:**

– قصص الأمريكى أرنست همنجواى (نوبل١٩٥٤) 7

– الكاتب أرنست همنجواى 9

– قـطـة فى المـطـر 11

– عـجـوز على الجسر 19

– مكان نظيف، جيّد الاضاءة 25

– مـخـيّم هـندى 35

– حكاية قصيرة جدا 43

* **الفصل الثانى:**

– قصص الإنجليزية دوريس ليسنج (نوبل ٢٠٠٧) 47

– الإنجليزية دوريس ليسنج 49

– رحـلـة طـيـران 51

– هـجوم معتدل للجراد 61

- فى المعرض الوطنى 77
- التّحديق 89
- أنا بصفتى رياضيّة 107

* **الفصل الثالث:**

- قصص الألمانية هيرتا موار (نوبل ٢٠٠٩) 119
- الألمانية هيرتا مولر 121
- حمام سويبيان 123
- أوتوبيس الأرياف 125
- أسرتى 129
- موعظة الجنازة 133
- عن قصّات شوارب وشعر ألمانية 141

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
آفاق عالمية

84- عليك بالصبر على البنفسج(وقصائد أخرى)
مسعود أحمدي
ترجمة و تقديم: يوسف عبد الفتاح
نسرين شكيبي

85- من العيون فى العيون
تأليف: يوسف هروبى
ترجمة: يوسف ليمود

86- القميـــص
تأليف: لاورو أولو
ترجمة وتقديم: د.طلعت شاهين

87- أبناء الشمس الخامسة
ترجمة وتقديم: فاطمة ناعوت
تصدير: د.ماهر شفيق فريد

88- حكايات الجن الدنماركية
تأليف: هانز كريستيان أندرسن
ترجمة وتقديم: د. توفيق على منصور

89- افتـــح الأبواب كلـهـــا وقصائد أخرى
ترجمة: محمد أبو العطا